الأخلاق ومذاهبها

الدكتور
صلاح الدين خليل عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

اهـــداء

الى أبى وأمى ...

تخليـدا لذكراهما واعترافا بفضـلهما

راجيـا أن أكون بتوفيق الله اسـتمرارا

لعملهما الصـالح فى هذه الحياة الدنيا .

صلاح الدين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين فاتحة كل خير وتمام كل نعمة والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله هادى الأمة وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فيعد هذا الكتاب محاولة لعرض الكثير من الجوانب الخاصة بعلم الاخلاق . وقد حرصت كل الحرص على أن يكون منهجى فيه منهجا موضوعيا . وسيرا على هذا النهج الذى أخذت نفسى به والتزمته منذ باكورة التفكير فى اخراج هذه الدراسة ، فقد قسمتها الى ستة فصول جعلت الفصل الأول منها مدخلا الى هذه الدراسة وبدأته برؤية موجزة فى تاريخ البحث الأخلاقى ، وتعريف لعلم الأخلاق وموضوعه وغايته وعلاقته بغيره من العلوم .

والفصل الثانى تحدثت فيه عن الخلق ونشأته وتربيته وعوامل التأثير فيه ، تزيد على ذلك موضوع الحكم الخلقى وبيان مصادره .

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن المسئولية والسلوك مع شرح واف لآراء الأخلاقيين فى الضمير والجزاء وأنواعه .

وتناولت فى الفصل الرابع الفضيلة وأقسامها والنسبية فيها مع استعراض لآراء فلاسفة اليونان وبعض المحدثين حول هذه الأقسام .

وجاء الفصل الخامس كخط فلسفي بين الغربيين والمسلمين ،فكان بمثابة نظرة عاجلة حول أسس الأخلاق فى الاسلام مع عرض موجـز لآراء الفلاسفة الأخلاقيين المسلمين •

والفصـل السادس عرضت فيـه لاهم المذاهب الأخلاقية التى تحاول دائما الاجابة على أى شيء هو حسن ؟ (ب) كيف يجب علينـا أن نعمل ؟ (ج) لمـاذا يجب علينا أن نعمل على هذا النحو دون ذلك • وعلم الأخلاق هو مجموعة من المذاهب ، ولكن تعدد هذه المذاهب أما حسب المصدر الذى يصدر عن العالم الأخلاقى فى رأيه ، أو حسـب الغاية التى يحددها للسلوك الانسانى • وقد ركزنا على المذاهب التى تبحث الغاية من العمل الانسانى •

ولا نزعم ان هذا الكتاب ليس به نقص أو عيب ، فقد نوجز فى صفحات ما سطره كبار الفلاسفة فى رسائل ومصنفات ، ولكننا حاولنا وسنحاول دوما تقديم أى شيء مهما كانت قيمته لأن الجد والاجتهاد أفضل من الركون الى الكسل والخمول • فاذا كان نصيبنا التوفيق فهو ما نبتغيه ، وان كانت الأخرى فقد قمنـا بواجبنا فى حـدود طاقتنا وامكاناتنا • وحسبك من هذه الدراسة الاطـلاع على أخـلاق وقيم مناوئيك الرد عليها ودحضها اذا كانتمجافية للصوابومخالفة للحقيقة العلمية المجردة والاستفادة منها اذا كانت خالية من التعصب والهوى والمجـــــون •

ثم ختمت دراستى بثبت المراجع والمصادر التى رجعـت اليهـا واستقيت منها مادة البحث حتى لا أحيف على حق أحد من العلماء عملا بمبدأ وجوب عـزو الفضل الى ذويه • وقد سميت هـذه الدراسـة « باسم الأخلاق ومذاهبها » •

الفصل الأول

مدخل الى علم الأخلاق

- رؤية فى تاريخ البحث الأخلاقى .
- تعريف علم الأخلاق .
  (موضوعه وغايته)
- علاقة علم الأخلاق بغيره من العلوم .
- أعلم الأخلاق نظرى أم عملى .

والله أسأل أن تكون هذه الدراسة نافذة جديدة لجيل وأعد لتفتح عقولهم ووجداناتهم على أوسع مجالات المعرفة خاصة ونحن في عصر يحكم على المرء بالانسانية والقيم المثالية اذا أعطى من نفسه الاستقامة وامتلاك الصفات ، بعيدا عن نزعات الهوى والمجون والشهوات .

والله من وراء القصد ، وهو يهدى الى السبيل ؟

أم درمان — ودنوباوى —

دكتـــور

صلاح الدين خليل عثمـــان

الثلاثاء : ١٢ / ربيع الأول/ ١٤١٦ هـ

الموافق : ٨ / أغســطس / ١٩٩٥ م

رؤية فى تاريخ البحث الأخلاقى

لعل أول باحث فى الأخلاق بحثا علميا اليونان ، ولم يعر فلاسفة اليونان الأخلاق الأولون التفاتا كبيرا بل كانت جل ابحاثهم تدور حول الطبيعيات ، حتى جاء السوفسطائيون(١) (٤٥٠ — ٤٠٠ ق.م) وكانوا يتهمون بلعبهم بالألفاظ لقلب الحقائق حتى اشتقوا من اسمهم « سفسطة » وعنوا بها المغالطة فى البحث ، ورغم ما أثير حولهم فقد اداهم البحث الى النظر فى أصول الأخلاق .

وجاء سقراط (٤٦٩ — ٣٣٩ ق.م) ويعد بحق اول من وضع معاملات الناس موضع بحث على أساس علمى ، وكان يرى ان الأخلاق والمعاملات لا تكون صحيحة الا اذا أسست على العلم حتى كان يذهب الى أن الفضيلة هى العلم . لأنه حقيقة كان يقدس المعرفة والعلم فالقاعدة عنده : من عرف كان فاضلا ومن جهل كان شريرا . تزيد على ذلك أنه كان يرى ان السعادة لا تنجم عن شىء مادى وانما هى أثر لحالة نفسية آخلاقية هى الانسجام بين رغبات الانسان وبين الظروف التى يوجد فيها .

وعلى أثر سقراط ظهرت المذاهب الأخلاقية وتنوعت وظلت متنوعة الى يومنا هذا ، وأهم الفرق التى ظهرت بعده هى :

---

(١) معنى السوفسطائى فى اللغة اليونانية الحكيم — وهم طائفة من الفلاسفة كانوا معلمين متفرقين فى البلاد مختلفين فيما بينهم ولكن يجمعهم غرض واحد وهو اعداد شبان اليونان ليكونوا صالحين أحرارا يعلمون ما يجب عليهم لوطنهم .

١ ــ الكلبيــون (Cynics) ومؤســس مذهبهــم أنتستيس (٤٤٤ ــ ٣٧٠ق.م) ومن تعاليمهم أن الآلهة منزهة عن الاحتياج وخير الناس من تخلق بأخلاق الالهة وقنع بالقليل وتحمل الآلام واستهان بها واحتقر الغنى وزهــد فى اللذائذ ومن أشهر رجال هــذا المذهب ديوجانيس الكلبى مات سنة ٣٢٣ ق.م .

٢ ــ القورينائيون (Cyrenics) زعيمهم آرسطيس ــ كانوا على عكس الكلبيين يرون ان طلب اللذة والفرار من الألم هما الغــاية الصحيحة الوحيدة للحياة وان العمل يسمى فضيلة اذا كان ينشأ عنــه لذة أكثر مما ينشأ عنه من الآلام . فبينمــا يرى الكلبيون السعادة فى الفرار من اللذة يرى القورينائيون السعادة فى نيلها والأكثار منها(٢) .

ثم جاء أفلاطون (٤٢٧ ــ ٣٤٧ ق.م) وكتب كتبــه على شــكل محاورات ، أما آراؤه فى الأخلاق نجــدها منثورة فى تلك المحاورات ممزوجة بأبحاثه الفلسفية . وبنى رأيه فى الأخلاق على (نظرية المثل) ولتوضيح ذلك نقول : أنه يرى أن وراء هذا العالم المحسوس عالم آخر روحانيا ، وأن لكل موجود مشخص مثالا غير مشخص فى العالم العقلى أو الروحانى . طبق أفلاطون ذلك على الأخلاق فقال : ان بين هــذه المثل مثالا للخير وهو معنى مطلق أزلى أبدى بالغ الكمال . وكلما قربت المعاملة منه وسطع عليها ضوؤه كانت أقرب الى الكمال . وفهم هذا المثال يحتاج الى رياضة النفس وتهذيب العقــل ، ومن ثم لا يدرك الفضيلة فى خير أشكالها الا من كان فيلسوفا .

وقد أدرك أفلاطون أن فى النفس قوى مختلفة أصيلة لا يخــلو منها أحد من بنى الانسان مادام حيا وفى وضعه الطبيعى وهو : (قوة

---

(٢) كتــاب الاخلاق ص ١٢٠ .

العقل ـ قوة الغضب ـ قوة الشهوة) والفضيلة تنشأ من تعادل تلك القوى وخضوعها لحكم العقل •

أما عن أخلاق المجتمع وسعادته فكان يرى ضرورة ان يتألف المجتمع من ثلاث طبقات متمايزة الطبقة العليا الذهبية وهى طبقة الحكام والقادة وهى تماثل العقل فى الفرد ـ تليها الطبقة الوسطى الفضية وهى طبقة الجند وتماثل الغضب فى الفرد من حيث ان وجودها فيه لصون حياته والدفاع عنه ـ والطبقة الثالثة وهى الطبقة الدنيا ومهمتها تحصيل القوت والطعام للمجتمع (العمال الزراع وأمثالهم) وهى تماثل قوة الشهوة فى الفرد ، ولكل طبقة خصائص لابد أن تتوافر فيها •

وذهب (أفلاطون) الى أصول الفضائل أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل • وهى قوام الأمم كما أنها قوام الأفراد • فالحكمة فضيلة الحكام والشجاعة فضيلة الجنود ، والعفة فضيلة الرعية والعدل فضيلة الجميع • وكذلك الشأن فى الفرد الحكمة هى الفضيلة الحاكمة للشخص المدبرة له ، والشجاعة فضيلة بها يدفع الشرور ، والعفة بها يقاوم الميل الى التعالى فى اللذائذ ، والعدل الفضيلة الدافعة للعمل بما يتفق مع مصلحة الناس •

أما أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق‌م) بحث فى الأخلاق وألف فيها ورأى ان الغاية الأخيرة التى يطلبها الانسان فى أعماله هى (السعادة) وحدد أن الطريق الى نيلها لا يكون الا باستعمال القوى العاقلة أحسن استعمال • فلا غرابة اذن أن يكون هو واضع نظرية الأوساط أى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين •

ثم جاء (الرواقيون والابيقوريون) بنى الرواقيون (**Stoics**)

مذهبهم على مذهب الكلبيين وقد اعتنقه الكثير من فلاسفة اليونان والرومان وأشتهر من اتباعه (سنيكا ٦ ق — ٦٥ م) وابيكتيتس (٦٠ — ١٤٠ م) والأمبراطور مرقص أورلبوس (١٢١ — ١٨٠ بم)

أما الابيقوريون فبنوا تعاليمهم على تعاليم القورينائيين ومؤسس مذهبهم أبيقور وسنوضح ذلك عند الكلام عن المذاهب الأخلاقية — وقد تبعه فى العصور الحديثة الفيلسوف الفرنسى جاسندى (١٥٩٢— ١٦٥٥ م) •

وفى القرون الوسطى كانت الكنيسة تحارب فلسفة اليونان والرومان فكان بعض رجال الدين يبحث فى فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهم لتأييد التعاليم المسيحية وتطبيقها على العقل وما يعارض النصرانية منها كان ينبذ لذلك كان كثير من من آباء الكنيسة فلاسفة بهذا المعنى(٣) •

وفلاسفة الأخلاق الذين ظهروا فى هذا العصر كانت فلسفتهم مزيجا من تعاليم اليونان وتعاليم المسيحية ومن أشهرهم أبيلارد فيلسوف فرنسى (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) وتوماس الأكوينى فيلسوف لأهوتى أيطالى تأثر بابن رشد وتابعه فى شرحه للعلاقة بين الوحى والمعرفة الفلسفية(٤) •

هذا ولم يعرف العرب فى جاهليتهم فلاسفة دعوا الى مذاهب

---

(٣) كتاب الأخلاق ص ١٢٢ بتصرف •

(٤) لمزيد فى التفصيل راجع كتاب دى لاسى أوليرى الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ترجمة اسماعيل البيطار بيروت ١٩٧٢م ومؤلفنا محاضرات فى الفلسفة الاسلامية ص ١٥٩ ط الأمانة شبرا مصر ١٩٩٥م •

معينة كالذى رأيناه عند اليونان . لقد كان عندهم شعراء وحكماء صاغوا الكثير من الحكم والأمثال ، يقول صاعد الأندلسى " أما علمها الذى كانت تتفاخر به وتبارى به فعلم لسانها وأحكام لغتها ونظم الأشعار وتأليف الخطب وكانت مع ذلك أصل علم الأخبار ومعدن معرفة السير والأمصار(٥) .

تعريف علم الأخلاق :

ان الناظر فى القاموس المحيط يجد أن كلمة الخُلق قد جاءت بمعنى السجية والطبع والمرؤة والدين وبمعنى التقدير أيضا(٦) .

وفى لسان العرب : بمعنى الطبيعة وجمعها أخلاق والخلق السجية ، وقال الخلق هو الدين والطبع والسجية وحقيقته انه وصف لصورة الانسان الباطنية وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة(٧) .

وجاءت كلمة الخلق فى أساس البلاغة بمعنى التقدير واستعملت فى القرآن الكريم بمعنى الايجاد بتقدير وحكمة ، يقال رجل مختلق أى حسن الخلقة،ويقال رجل له خلق حسن،وخليقته وهى ما خُلق عليه من طبيعته ، وتخلق بكذا ، وهو خليق لكذا كانما خلق وطبع عليه ويقال امرأة خليقة أى ذات خلق وجسم(٨) .

---

(٥) طبقات الأمم ـ صاعد الأندلسى .

(٦) القاموس المحيط فصل الخاء باب القاف ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٧) لسان العرب مادة خلق ج ٢ ص ١٢٤٥ .

(٨) أساس البلاغة حرف الخاء ص ١٧٣ .

ومن خلال هـذا العرض اللغوى نخلص الى أن الخلق يدل على الصفات الفطرية الطبيعية فى خلقة الانسان ، وأيضا على الصفات المكتسبة من البيئة والتعامل • كما أن الخلق يدل على الصورة الظاهرية للانسان • يقول الراغب الأصفهانى : ان الخلق يقال فى القوى المدركة بالبصيرة والخلق فى الهيئات والأشكال المدركة بالبصر(٩) •

هذا هو حد الأخلاق فى اللغة ، أما فى الاصطلاح فان الناظر فى محيط الفكر عموما يلتقى بتعريفات تختلف شكلا لاختلاف مدارس أصحابها الا أنها تتفق معنى وروحا • فابن مسكويه مثلا فى كتابه تهذيب الأخلاق يعرف الخلق : بأنه حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية ، وهذه تنقسم الى قسمين منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذى يحركه أدنى شىء نحو الغضب ، ومنها ما يكون مستفادا من العادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأول حتى يصير ملكة وخلقا(١٠) •

والغزالى فى كتابه الاحياء يعرف الخلق بأنه : عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر ولا روية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا(١١) •

---

(٩) المفردات فى غريب القرآن ص ١٩٣ •

(١٠) تهذيب الأخلاق ص ٣١ •

راجع أيضا بحث (الأخلاق ومكانتها فى الاسلام) د• محمدعبدالصبور مجلة أصول الدين ١٩٨٩ أسيوط •

(١١) الاحياء جـ ٣ ص ٣٩ •

والأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة فى كتابه : الأخلاق الاسلامية وأسسها يعرف الخُلق بأنه صفة مستقرة فى النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار فى السلوك محمودة أو مذمومة(١٢) .

ويعرف لوسن (١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م) الأخلاق بأنها مجموع متفاوت النسق من التحديدات المثالية والقواعد والغايات . وعرفه جوليفيه بأنه العلم الباحث فى الاستعمال الواجب لحرية الانسان ابتغاء بلوغه غايته النهائية . أما جورج جوسدورف يرى أن الأخلاق طريقة معينة للنظر الى مجهود التعبير عن الانسان فى العالم . ويقول عنها فولكييه بأنها مجموع قواعد السلوك التى بمراعاتها يمكن الانسان بلوغ غايته(١٣) .

وهناك من يعرف علم الأخلاق بأنه علم العادات الا أننى أود أن أشير الى أن العادة نوع من الممارسة والتكرار بهـا يكمل الخلق وهى طريق اليه ولا تشمل الأعمال الارادية التى تتكون عنها العادة . يقول الدكتور بيصار : ان من يعرف الأخلاق بعلم العادات قد تأثر بالأصـل الاغريقى لكلمة « أيتوس » ومعناها « العادة » . الا أن هذا التعريف قاصر على دائرة علم الأخـلاق التى لا تقتصر على أعمـال الانسـان الارادية التى تتكون عنها العادات والتقاليد ، وانما بجانب ذلك تتناول التوجيه السديد المقنع لعمل الخير واجتناب الشر والحض على التمسك بصالح التقاليد والعادات بمقدار اجتناب ما هو فاسد منها(١٤) .

ويرى الأسـتاذ أحمد أمين أن علم الأخلاق علم يوضـح معنى

---

(١٢) الأخلاق الاسلامية وأسسها جـ ١ ص ٧ .

(١٣) لمزيد من التفصيل راجع الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٨ ـ ٩ .

(١٤) راجع كتاب العقيدة والاخلاق وأثرها فى الفرد والمجتمع ص٢٠٢ .

الخير والشر ويبين ما ينبغى أن تكون غايه معاملة الناس فى أعمالهم وينير السبيل لعمل ما ينبغى(١٥) ٠ وهو بهذا يؤكد أن علم الأخلاق عزيز المكانة كريم الأهداف طالما يبين للناس أهمية التحلى بالفضائل ويحثهم على أن الرذيلة وبال وخسران فى الدنيا والآخرة ، مبينا لهم الوسائل التى يجب اتباعها لبلوغ هذه الأهداف الخيرة ، ومن هنا يمكننا تعريف علم الأخلاق بالتعريف الآتى :

علم الأخلاق هو علم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى الانسان بها وعلم بالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى الانسان عنها ، والالمام التام بجميع القواعد التى باتباعها يعمل الانسان الخير ويتجنب الشر فتكون الحياة سعيدة بقدر الامكان وتكون الآخرة خير وأبقى ٠

الغاية من علم الأخلاق :

عندما ندرس علم الأخلاق من جميع النواحى نجد أن غايته مصلحة الانسان وتحقيق السعادة له اذ أن حقيقة السعادة فى هذه الحياة هى الشعور والاحساس الدائم للمرء بخيرية الذات وخيرية المصير ٠ يقول الدكتور بيصار : ان الغاية التى يتوخاها علم الأخلاق انما هى تحقيق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية للانسان وتهيئة الحياة الآمنة والعيشة الراضية له فى كل من حياته العاجلة والآجلة(١٦) ومعنى ذلك أن علم الأخلاق انما يقصد الى ايجاد مجتمع يسوده الأمن والعدل والتعاون ويعمل على صيانة الحياة من الظلم والفساد والسير بالانسان الى الأكمل والأفضل دائما أو بعبارة أدق أن الغاية من علم

---

(١٥) أحمد أمين — كتاب الاخلاق ص ٢ مكتبة النهضة المصرية ٠

(١٦) العقيدة والأخلاق ص ٢٠٤ ٠

الأخلاق هى صـــلاح الفرد والمجتمع بملازمة الصراط المستقيم فى السلوك ، لأنه يقوى ارادة الانســان ويشــجعها على عمل الخير لتحقق المثل الأعلى للحياة •

موضـــوع علم الأخلاق :

يشمل موضوع علم الأخلاق ، أعمال الانسان الارادية الصادرة عن تفكير وروية(١٧) • وعلى هذا فان علم الأخلاق لا يشمل الأعمال التى لا سلطان للارادة الانسانية عليها كالتنفس وما شابهه ، أما أعمال الانسان الشبيهة بالأعمال الاختيارية والأعمال الاضطرارية كالأفعال التى تصدر من النائم والساهى والغضبان ، فان أصــحابها مؤاخذون عليها خلقيا لأن قواعد الأخلاق تهيب بالمرء أن يحتاط لدرء شر الحالات التى يكون فيهامسلوب الارادة (١٨) •

وخلاصة هذا أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال التى صدرت من العامل عن عمد واختيار يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل، وهذه هى التى يصدر عليها الحكم بالخير أو الشر وكذلك الأعمال التى صدرت لا عن ارادة ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه • وأما ما يصــدر لا عن ارادة وشعور ولا يمكن الاحتياط له فليس من موضوع علم الأخلاق •

علاقة علم الأخلاق بغيره من العلوم :

علم الأخلاق وعلم النفس : يرى بعض الباحثين ان علم النفس مقــدمة لازمة لعلم الأخلاق طالمـــا كان يبحث فى قوى الاحســاس والادراك والحافظة والذاكرة وفى الارادة وحريتها والخيال والوهم

---

(١٧) المصدر الســابق ص ٢٠٤ •

(١٨) المصدر الســابق •

وفى الشـعور والعواطف وفى اللذة • والبـاحث فى علم الأخلاق لا يستغنى عن هذه المباحث لمـا لها من تأثير مباشر فى علم الأخلاق •

علم الأخلاق وعلم الاجتماع :

يقوم علم الاجتماع على حصول العلاقة بين الفرد والمجتمع وأنه متكفل لدراسة العادات والتقاليد والنظم والبيئات ، والأخلاق أيضـا متجهة الى دراسة تلك الأنحاء بما للأخلاق من أثر عملى فى ناحيـة العادات والتقاليد والعقـائد والبيئات • فالعلاقة بين هذين العلمين وثيقة خاصة وأن دراسة السلوك أى أعمال الانسان الارادية التى هى موضوع الأخلاق تجر حتما الى دراسـة الحياة الاجتماعية التى هى موضوع علم الاجتماع لأن الانسان لا يمكن أن يعيش الا مجتمعا •

ويرى الأستاذ سانتهلير أن علم الاجتماع يبحث فى الجمعيـة الأولى من النـاس وكيف ارتقت ، ويبحث فى اللغـة والدين والأسرة وكيف تكون القانون والحكومة ونحو ذلك ، ودراسة هذه الأشياء تعين على فهم أعمال الانسان والحكم عليها بالخيرية أو الشرية والصواب او الخطـأ(١٩) •

علم الأخلاق وعلم القـانون :

العلاقة بين هذين العلمين غايتها واحدة وهى تنظيم أعمال الناس لاسعادهم ولكن دائرة علم الأخلاق أوسع ، يقول الأستاذ أحمد أمين ان الأخلاق تأمر بعمل كل ما ينفع وتنهى عن عمل كل ما يضر ، وليس كذلك القانون فهناك أعمال نافعة لا يأمر بها القانون كالاحسـان الى

---

(١٩) كتاب أرسطو للأستاذ سانتهلير ترجمة لطفى السيد ــ العلاقة بين السياسة والأخلاق ص ٦ وما بعدها •

الفقير وحسن معاملة الزوج لزوجه ، وهناك أعمال ضارة لا ينهى عنها القانون كالكذب والحسد ، لأن القانون لا يأمر ولا ينهى الا اذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره أو نهيه والا لم يكن قانونا(٢٠).

نستطيع القول أن القانون ينظر الى الأعمال من حيث نتائجها الخارجية ، أما علم الأخلاق فيبحث فى حركات النفس الباطنية — ولو لم يصدر عنها عمل خارجى — كما يبحث فى الأعمال الخارجية . فالقانون مثلا يستطيع أن يقول «لا تسرق» و « لا تقتل » ولا يستطيع أن يقول شيئا وراء ذلك ، أما الأخلاق فتشارك القانون فى النهى عن السرقة والقتل فتزيد عليه فتقول « لا تفكر فى الشر » .

وعن هذه العلاقة يقول الدكتور أحمد عبد العزيز الألفى فى كتابه شرح قانون العقوبات القسم العام : قواعد الأخلاق تعد من أدوات الضبط الاجتماعى التى تهدف الى الزام الأفراد باحترام الأوضاع التى ترتضيها الجماعة لذلك كان من الضرورى وجود صلة قوية بينها وبين قانون العقوبات باعتباره أهم هذه الأدوات وأقواها أثرا ، ولذلك فان كثيرا من الأفعال المنافية للأخلاق تعد جرائم(٢١) .

ولا يفوتنى أن أشير الى أن القانون يحمى ملك الناس وأن ينهى عن الاعتداء عليه ، ولكن لا يستطيع أن يأمر المالك أن يقصد الى المصلحة والخير فى استعمال ماله فى حين أن علم الأخلاق يستطيع أن يأمر هذا الأمر .

---

(٢٠) كتاب الأخلاق ص ٧ .

(٢١) شرح قانون العقوبات « القسم العام » د. أحمد عبد العزيز الألفى ص ١٠ ط جامعة الزقازيق ١٩٨٧م .

علم الأخلاق وعلم الجمــال :

الدارس لأبحاث هذه العلوم وما تشتمل عليه تتضـح له العلاقة بينهما فهناك صــلة وثيقة أيضــا بين القيم الجمالية والأخلاقية فى ميدانين هما الجمــال والخير ، غير أن التمييز بينهما أمر هام ذلك لأن الأحكام الجمالية ايجابية أساسا بمعنى أنها ترتبط فى نظر الكثيرين من فلاســفة الفن بكل ما هو خير وتســمى لادراك ما هو خير بينما الأحكام الأخلاقية تحمل معها قدرات الشر والسبب فى هذا أن ادراك المتعة لذاتها أمر تنفر منه القيم الأخلاقية ، بل يذهب بعض الفلاسفة الأخلاقيين والجماليين الى أن تجنب المتعة فضيلة من الفضائل أى أن حرمان النفس من كثير من الرغبات احدى الفضائل ٠

ويحســن بنا أن نشير الى أن علم الأخلاق يعد فرعا من فروع الفلســفة حسب رأى كثير من الباحثين وهى : ١ ــ ما بعد الطبيعة ٢ ــ فلسفة الطبيعة ٣ ــ علم النفس ٤ ــ علم المنطق ٥ ــ علم الجمال ٦ ــ علم الأخلاق ٧ ــ فلســفة القانون ٨ ــ علم الاجتماع وفلســفة التــاريخ ٠

ولكن الناس مع الاختلاف الكبير فيما بينهم يميلون جميعــا الى أن علم الأخــلاق أثبت أن أخلاق الانسان ليست خطــا يمنح حسب المصادفة والاتفاق ولكنها تصلح وتفسد وترقى وتنحط تبعا لقــوانين ثابتة لا تتخلف ، واذا عرفنا هذه القوانين وعملنا على وفقها استطعنا أن نصلح أخلاق الانسان بقدر ما تسمح طبيعته ٠

أعلم الاخلاق نظرى أم عملى :

ان مجمل آراء الاخلاقيين فى علم الاخلاق نجدها فى فريقين

أولهما : الفلاسفة النفعيون ويذهبون الى القول بأن علم الاخلاق

علم عملى حيث يمكن تحديد غاية معينة يجب أن يسعى اليها الناس جميعا وهى أن ينالوا أكبر قسط من السعادة ، وعلى الاخلاقيين أن يبتكروا خير الوسائل لبلوغ هذا القسط ، كما على الاطباء أن ينقبوا عن أفضل الوسائل والطرق لتوفير أسباب الصحة وتحصيلها .

وثانيهما : الجمهور : ويذهبون الى القول بأن علم الاخلاق « نظرى » أى انه يصور المثل الخلقى الذى يجب أن يحتذى والقواعد التى يجب العمل بها لمحاولة بلوغ هذا الهدف(٢٢) .

وفى الحقيقة أن علم الاخلاق ينقسم الى قسمين :

نظرى : وهو الذى يبحث فيما يجب أن يكون عليه السلوك الانسانى بحيث يبحث فى ماهية الخير والشر وماهية الضمير الانسانى والغاية من هذه الحياة الانسانية ، كما يبحث عن الكمال الذى ينشده الانسان لتتحقق به سعادته .

وعملى : وهو الذى يعد كالرقيب على الجانب النظرى ، بحيث يكون من شأنه الحكم بمطابقة الفعل أو عدم مطابقته لقانون الاخلاق وبموافقته أو عدم موافقته لمعانى الحق والواجب ولمقاييس الاخلاق سواء تعلق ذلك بالفرد أو الجماعة ، كالبحث فى أقوام الطرق لتربية الخلق واستقامة الضمير وتعويد الانسان على الأفعال الحميدة بتكرارها والادمان على ممارستها وابعاده عن النقائص بهجرها واستقباحها(٢٣) .

والذى يهمنا فى علم الاخلاق هو أنه يبحث فى قيمة الخير محاولا أن يساعدنا على توجيه سلوكنا الوجهة السوية عن طريق تحليله لمعنى

---

(٢٢) راجع كتاب الخلق الكامل ـ محمد أحمد جاد المولى ج ١ ص ٤١
(٢٣) العقيدة والأخلاق ص ٢٠٥ .

الخـير ولمعنى الشر وتمييزه لمعايير الفضيلة والرذيلة وشرح مفاهيم الواجب والسعادة والضمير • وقد يقال ان الأخلاق أو المبادىء الخلقية لا تحتاج لقواعد يسير عليها الانسان فهى مفطورة فيه وهناك من هم على جانب كبير من الفضيلة دون دراية أو دراسة لعلم الأخـلاق •

والرد على هذا الاعتراض فاننى أرى أن دراسة علم الاخلاق لها أهمية كبرى فى مجال الحياة لأن الجهل بمبـادىء هذا العلم تجعل حيـاة الانسان أشبه ما تكون بحياة الحيوان بل يمكننـا القول بأن الفعـل الصادر عن جهل لا يكون فاضلا • كمـا لا يمكن القول بأن دراسـة مبادىء الأخلاق تحول الشرير الى انسان فاضـل . الا اذا كان لدى الشرير فعلا نزعة جادة لان يكون فاضلا فى حياته العملية بما اكتسبه من دراسة المبادىء والمثل العليا • ونحن على سبيل المثال نرى هذا فى تعلم قواعد الصحة فهى لا تقى صاحبها شر المرض الا اذا رغب رغبة جادة فى اتباع هذه القواعد فى حياته •

يتضح لنا اذن أن علم الاخلاق يحدد الاتجاه العام السوى لدى الانســان ويترك له تطبيق مبـادئه الكلية لأن هذه المبـادىء تضىء للانسان جوانب عامة من المعرفة الخلقية السليمة وتغريه بأن يـكون صاحب ارادة طيبة ومثل عليا واتباع مقتضيات الحياة الأجتماعية من نزاهة وعدالة وأمانة ولكنهـا لا تجبره على اتبـاع الطريق السـليم أو ترشده الى السلوك القويم الذى ينبغى اتباعه فى كل حالة • أى انها تقدم له العموميات لا الجزئيات ، وتفتح له معالم الطريق السوى وتترك له السير فيه على قدر نشاطه وعزيمته •

ولهذا اعتمـد المربون والمرشـدون على علم الأخلاق فى شئون التربية والتهذيب لعنايته بالجانب العملى التطبيقى من سلوك الأفراد والجماعات بجانب عنايته بالجانب النظرى منهما •

الفصل الثانى

الخلق

- الخلق وتربيته .
- عوامل التأثير فى الخلق
- الحكم الخلقى

الخـــلق

عرف علماء الأخلاق « الخلق » بأنه عـادة الارادة • يعنى أن الارادة اذا اعتادت شيئا فعادتها هى المسماة بالخلق أى أنه تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار ، وعلى هذا يكون الرجل الطيب هو الذى تتغلب عليه الميول الطيبة باستمرار وعكسه الرجل الخبيث أو الشرير• وقد شدد أرسطو فى تكوين العادات الطيبة أى فى تكوين الخلق الثابت الذى تصدر عنه الاعمال الصالحة باستمرار ، وكما أن الشجرة تعرف بالثمرة ، فكذلك الخلق الطيب يعرف بالأعمال الطيبة التى تصدر بانتظام

وأما الفلاسفة الاسلاميون فقد عرفوه بانه حال النفس داعيـة لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية(١) • ويقول الامام الغزالى فى احياء علـوم الدين أنه هيئة للنفس راسـخة ، عنها تصدر الأفعـال بسهولة من غير حاجة الى فكر وروية(٢) •

ورغم هذه التعريفات للخلق الا اننا نجدها تلتقى — من وجهة النظر الاخلاقية — عند نقطة واحدة تكيف الخلق فى حقيقته وتكوينه تكيفـا متشابها ينتج عنه فى النهاية خلق موحد ونمط لسلوك انسانى •

ويرى السيد محمد باقر الصدر أن الخلق عبارة عن سلوك الانسان (كفرد وكجماعة) سلوكا يميز فيه بين الخير والشر ، فيحب الخـير ويختاره ويعمل على تنفيذه ، ويمقت الشر ويعافه(٣) • وهو تـكامل

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٢٠٥ •

(٢) احياء علوم الدين الغزالى جـ ٣ ص ٣٩ •

(٣) محمد باقر الصدر فلسفتنا ص ٤٩ •

العادات والاتجـاهات والعواطف والمثـل العليا ، بصورة تميـل الى الاستقرار ، وتصلح للتنبوء بالسلوك المقبل(٤) .

أما الدكتور محمد الجمالى يقول انه سلوك يتفاعل فيه الضـمير والفكر والعاطفة والارادة والتنفيذ والعادة ، فكل هذه تتحـد فتكون وحدة سلوكية أخلاقية يعيشها فى واقع الحياة اليومية(٥) . وعن هذا السلوك تنتج الحاسة الخلقية ، الموجودة فى النفس الانسانية فطريا حيث يستطيع الفرد العادى أن يميز الى حد ما — وفى كل ما يقوم به من أنواع السلوك — بين ما هو خير وما هو شر ، وبين ما هو شر وما هو محايد لا ينفع ولا يضر ، وذلك مثلما يميز فى عالم المحسوس بين الجميل والقبيح والمجرد من كل تعبير(٦) .

تربيـة الخلق :

هنـاك أمور هـامة جدا تعـين على تربيـة الخلق وتعمل على ترقيته وهى :

١ — توسيع دائرة الفكر : وقـد علق عليه هربرت اسبنسر(٧)

---

(٤) المرجع السـابق ص ٤٧ .

(٥) د. محمد فاضل الجمالى : نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الاسلامى ص ١٤٤ الدار التونسية للتوزيع ١٩٧٢م .

(٦) د. فؤاد البهى السـيد الأسس النفسـية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ط ٤ دار الفكر العربى ص ٣٤٧ ١٩٧٥م .

(٧) فيلسـوف انجليزى (١٨٢٠ — ١٩٠٣م) من أقطـاب العلم الحديث الف كتبا كثيرة فى النفس والأخلاق والاجتماع والتربية سنتعرض لفلسفته عند دراسة المذاهب الاخلاقية .

أهمية كبرى فى تربية الخلق ، ويرى الدكتور أحمد أمين أن الفكر الضيق مصدر للكثير من الرذائل • ونحن نرى انه اذا ما استغلق فكر الانسان واستعصى عليه الفهم انقلبت لديه موازين الصواب والخطأ وعندها تضيق دائرة فكره فتنبعث عنها أخلاقا منحطة • تزيد على ذلك أن ضيق النظر (الانانية) تشل العقل وتصده عن رؤية الحق وتجعل أحكامه التى يصدرها أيا كانت ناقصة أو باطلة • وكثير من الناس أنظارهم فى الحياة مثل هذا أو قريبة منه ولهذا لابد للانسان من توسيع دائرة فكره ، لانه هو موضوع التربية الخلقية • وقيمة المصدر التربوى فيه يمكن أن تقاس بمدى احترامه لعقله • فاستقامة الفكر أهم وسيلة لمعرفة ما يحتاجه المرء الى المعادلة مع الناس والحكمة من هذه العلاقات •

٢ ـ صحبة الاخيار : لها أثرها البالغ فى حياة الانسان وهى تلعب دورا هاما فى تربية الخلق • فالقرين الى المقارن ينسب • بيد اننا نلاحظ أن الانسان مولع بالتقليد والمحاكاة والغيرة فى بعض الأحيان فكما يقلد من حوله فى ازيائهم يقلدهم فى أعمالهم ويتخلق بأخلاقهم • قال حكيم «نبئنى عمن تصاحب انبئك من أنت » وعلى كل فصحبة الأخيار بالنسبة لمجتمعنا الانسانى واضحة كالشمس فمعاشرة الشجعان تلقى الشجاعة فى نفوس الجبناء وهكذا •

٣ ـ مطالعة سير الابطال والنابغين : وهذه لها دورها الفعال خاصة وأن حياتهم تتمثل أمام القارىء وتوحى اليه بتقليدهم والاقتداء بهم • وكثيرا ما دفع الناس الى العمل الجليل حكاية قرءوها عن رجل عظيم أو حادثة رويت عنه •

٤ ـ ومما يساعد على تربية الخلق،أن يخصص الانسان نفسه لنوع من أعمال الخير العامة يضعها نصب عينيه ويجعلها غاية له يعمل لتحقيقها ومن خلال ذلك ينمو حبه للناس وعندها تجد الفضيلة فيه تربة

صالحة للغذاء والنمو وتصبح حياته ملبية لداعى الخير وعاصية لداعى الشر .

علاج الخلق :

الكيفية المثلى لعلاج الخلق الانسانى هى تنمية العواطف والمشاعر الخلقية فى الانسان فالحاسة الخلقية — كما بينا — موجودة فى النفس الانسانية فطريا . فاذا أحس الانسان من نفسه بافراط فى نوع من الشهوات فليضعف هذا الميل بشىء من الزهد مثلا . يعنى باختصار شديد أن الذى يريد التخلص من خلق سىء عليه الا يديم التفكير فيه بل يجتهد أن ينشىء محله خلقا جديدا فاضلا وكريما فكل كفاح نفسى، مهما كان حجمه جزاؤه النصر وكل اعتدال صحة وقديما قال الفيلسوف اليونانى ارسطو اذا تعدى خلق امرىء حده فليقومه بالميل الى ضده .

فاذا كانت هذه هى حقيقة الخلق بعد أن يتكون لابد لنا أن نشير الى العوامل التى تؤثر فيه ايجابا أو سلبا .

عوامل التأثير فى الخلق :

أن أهم هذه العوامل ثلاثة : العادة ، والبيئة ، والوراثة

أولا : العادة :

للعادة أثرها البالغ فى حياة الانسان ، وهى تلعب دورا بالغ الخطورة فيها ، وخاصة اذا كان الانسان على وعى بما يتعلمه ويفعله وبأدائه . فالعمل اذا تكرر حتى صار الاتيان به سهلا سمى عادة لأن النفس تقوم به بغير جهد وبغير كد وبغير مقاومة .

ومما لاشك فيه أن العادة تعد ينبوعا من ينابيع الخلق ولها تأثيرها فى رفع الانسان الى درجات الكمال أو النزول به الى دركات

الانحطاط . فعند ما يراد تحويل المرء من خلق ذميم الى آخر حميد ، أو يراد تكوين خلق معين له لم يكن موجودا من قبل يحمل المرء على اتيان هذا العمل وتكراره ويعود ذلك مرة بعد أخرى مع استعمال وسائل الاغراء والترغيب التى من شأنها أن تحبب اليه اتيان هذا الفعل الحميد والاقبال على ممارسته برغبة صادقة وميل آكيد ، واستخدام وسائل التنظير من ضده بحيث تصير نفرته منه وابتعاده عنه ميلا ورغبة بل طبيعة وخلقا ، وبالمواظبة على هذا التكرار والمداومة على الفعل الحميد يصبح اتيانه وممارسته عادة لازمة وطبعا دائما يعنى يصير خلقا له يصدر عنه تلقائيا من غير أن يسبقه تفكيره(٨) . والعادة توفر الزمن والانتباه ، فعندما يتكرر العمل ويصير عادة يعمل فى زمن أقل ولا يحتاج الى تنبيه كثير بل نعمله بقليل من الفكر والانتباه ، ويصعب علينا العدول عنه ، وتصبح حياتنا مجرد تكرير لأفكار وأعمال كسبناها فى أول عهدنا بالحياة . فاذا نحن عنينا بتكوين العادات الصالحة من صغرنا عنيت هذه العادات بنا فى بقية حياتنا وجنينا من ورائها ربحا عظيما .

والعادة هى التى تكسب كل ذى حرفة سحنة خاصة ونمطا خاصا فى الأفكار والعقائد والميول والحديث بالاضافة الى تسهيل أعمالهم فمثلا فى البحر الهائج البارد والأمواج المضطربة تسهل العادة على الغواصين عملهم وكذلك الملاحين فى الريح العاصف والفلاحين فى حقولهم رغم قساوة الحر .

يقول ابن خلدون فى مقدمته : ان أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر ، وأصله أن الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذى ألفه فى الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة . وأهل الحضر لما القوا جنوبهم على مهاد الراحة

---

(٨) العقيدة والاخلاق ص ٢٣٧ وما بعدها بتصرف .

والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف وتوالت على ذلك الأجيال أصبحوا عيالا على غيرهم • بيد أن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وانتباذهم عن الأسوار ووثوقهم بأنفسهم قد صاروا مدلين ببأسهم وصار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع واستنفرهم صارخ(٩) •

ولهذا فان علماء التربية يرون أن العادة تعد طبعا ثانيا ، وذهبوا الى القول بأن تلقين الاطفال الصدق والفضيلة والعفة معانى لا تورث الا عقما بل لابد من اشراب النفوس تلك المعانى وتكوينها على العمل بهذه الفضائل حتى تحل فيها محل الروح من البدن ويصبح الصدق مثلا طبيعة راسخة فى النفس • ومن هنا فان المسئولية الملقاة على عاتق المربين والمرشدين عظيمة فى غرس الأخلاق الحميدة وتكوينها فى نفوس الأفراد والجماعات ومحو كل أثر لذميم الاخلاق والعادات •

ومن هذا نعلم عظيم مقدار ما يستفيده الانسان اذا رزق بمرب صالح ، والضرر الجسيم أن هو أهمل أو أصيب بمرب فاسد •

ثانيا : البيئة :

البيئة هى كل ما يحيط بالانسان من مؤثرات حسية ومعنوية أو ما يؤثر فيه بطريق مباشر أو غير مباشر منذ كان جنينا فى بطن امه وحتى يأتيه اليقين •

والبيئة تعد من العوامل المؤثرة فى تكوين الأخلاق سواء أكانت بيئة طبيعية أو بيئة اجتماعية •

فالبيئة الطبيعية ما تتميز به الاقاليم المختلفة من مناخ وسهول

---

(٩) المقدمة ج ٢ ص ٤٧٨ وما بعدها .

وجبال وتضاريس وبحار وأنهار وحيوان ونبات الى غير ذلك مما يؤثر فى جسم الانسان وعقله وخلقه . يقول ابن خلدون ما ملخصه ، ان سكان الأقاليم المعتدلة هم أعدل البشر ألوانا وأجساما وأخلاقا وأديانا ومن أجل ذلك اختصهم الله بالنبوات . وسكان الأقاليم غير المعتدلة يبعدون عن الانسانية بمقدار قربهم من الحيوان الأعجم فى أمزجتهم وأخلاقهم .

ويشير أيضا الى أن أهل الاقاليم كثيرة الزرع مخصبة العيش يتصف أهلها بالخشونة فى أجسامهم والبلادة فى أذهانهم وان أهل الأقاليم المقتصرين على الألبان وخفيف الأغذية أحسن حالا فى أجسامهم وأخلاقهم من المنغمسين فى بحار الترف والبذخ . أضف الى ذلك أن المتجافين عن اللذات فى البادية والحاضرة أحسن دينا واقبالا على العبادة وأقوم أخلاقا وأمتن مذهبا من أهل الترف الذين قست قلوبهم وطمست بصائرهم بما أكثروا من الطعام والشراب(١٠) .

ان المؤرخين من عهد بعيد قد أبانوا ما للأقاليم وسائر الأشياء الجغرافية من عظم التأثير فى رقى الشعوب وبموجب هذا يرى البعض أن مكان ولادة الانسان ايحدد — الى درجة ما — كثيرا من صفاته أمجد أم كسلان — ومتوحش أم متمدين — وليس الانسان مكتوفا أمام البيئة لا يستطيع تعديلها أو التغلب عليها بل هو بما منح من عقل وفكر وروية وارادة يستطيع أن يستخدم ما حوله فى مصلحته .

أما البيئة الاجتماعية فهى تلك النظم الاجتماعية التى تحيط بالشخص أو الفرد كالمنزل مثلا والمدرسة والمؤسسات الحكومية

---

(١٠) المقدمة ج ١ ص ٣٩٤/٣٨٧ بتصرف .

والأصدقاء وغير ذلك مما انتجته المدنية أو التطور الحضاري من جوانب. والبيئة الاجتماعية أثرها الفعال على حق الانسان فقد تغذى الانسان وترقيه وقد تضعفه وتفنيه • فاذا نشأ الانسان فى بيئة صالحة نبت خير منبت وكون أحسن تكوين لأن الانسان عادة يتخلق بخلق أصدقائه وأحبابه ومن يعتقد فيهم الفضل لأن المفضول مولع دائما بالتخلق بأخلاق الفاضل ، روى الترمذى فى الزهد : المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل(١١) •

فالبيئة عموما لها دورها الفعال فى تكوين الجسم والعقل والخلق ولو ان سقراط أو أفلاطون أو أرسطو نشأ فى بيئة لا تساعد عقله على النمو ما كان فيلسوفا بل رجلا عاديا • ومهما يكن من أمر فان البيئة لا تستطيع — ومنها التربية — أن تجعل من الابله فيلسوفا ولكن يجب — كما بينا — أن يحاط كل ناشىء بالبيئة الصالحة لتصلحه على قدر استعداده •

ثالثا : الوراثة :

الوراثة هى انتقال بعض خصائص الأصل الى الفرع ، ولا يقتصر تأثير الوراثة على حالات الانسان البدنية فحسب بل يتعداها الى عقله وأخلاقه وفى كل مكان يرث الناس من أصولهم صفات مشتركة كالشكل مثلا والأمزجة والميول والغرائز والذكاء والبلادة والحواس والعواطف والعقل وحسن تقدير الأمور أو سوء تقديرها الى غير ذلك من الصفات التى يكون لها التأثير القوى فى تكوين أخلاق المرء وطبعها بطابع معين(١١) •

---

(١١) الاخلاق ومكانتها فى الاسلام (بحث) مجلة كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الازهر — أسيوط ص ٥٤ بتصرف •

يقول الأستاذ محمد أحمد جاد المولى : يظهر تأثير الوراثة واضحا زمن الحمل اذ هو الزمن الذى يوضع فيه أساس القوى الانسانية ، فلقد أثبت الأطباء أن انفعالات الحامل من سرور وخوف وحب وحزن وبغض وغيرها تؤثر فى جنينها ؛ لذا أوصوا بادخال السرور على الحامل والعناية بصحتها وترويح نفسها بالمناظر الجميلة والبعد عن كل ما يثير انفعالا سيئا فى نفسها(١٢) .

ويجب أن نلاحظ أننا لسنا نرث من آبائنا غرائز نامية ولاملكات ناضجة ، انما نرث منهم استعدادات وجراثيم فقط ، فلم يولد سحبان فصيحا ولا الحجاج سفاكا ولا نابليون حربيا ، ولكنهم ولدوا وفيهم استعدادات كامنة صادفتها بيئة صالحة لنموها فنمت ويرى أحمد أمين أن ذلك علة النبوغ(١٣) .

الحكم الخلقى

سبق أن بينا أن الحكم الخلقى لا يصدر الا على اعمالنا الارادية الاختيارية ، فما لم توجد ارادة لا يصدر الحكم بالخيرية أو البشرية. من هذا المنطلق نستطيع تعريف الحكم الخلقى « بأنه تقدير الأعمال الانسانية بمقياس خلقى معتبر » . وهناك عدة آراء فى بيان المقياس الخلقى الذى نزن به أعمالنا ونحكم عليها بالخير أو الشر ، فمنها ما يرجع الى الضمير ومنها ما يرجع الى العرف ومنها ما يرجع الى العقل ومنها ما يرجع الى القانون الوضعى . فاذا كان الامر كذلك فان الحكم الخلقى يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله ، فلا يجوز لنا أن

---

(١٢) الخلق الكامل ج ١ ص ١٠٤ .

(١٣) لمزيد من التفاصيل راجع الاخلاق ـ أحمد امين ص٢٨ ـ ٣٦ .

تصدر الحكم بالخيرية أو الشرية الا على أنفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم وذلك اما باخبارهم أو بقيام القرائن على أغراضهم اذ ليست جميع الأعمال تصلح أن تكون موضوعا للحكم الخلقى لأنه خاص بأعمال الانسان الارادية فقط .

وهكذا يخرج عن موضوعه احداث الطبيعة كلها وأعمال الحيوان بجميع أنواعه وعمل الصبى اللامميز والنائم والمكره والمجنون والسكران .

ويرى ما كنزى ان الحكم الخلقى ينمو من العادة الى القانون ثم يتابع نموه الى أن يصل الى المبادىء المبنية على النظر ، ثم يتدرج من حكم على الأعمال الخارجية الى أن يحكم على الأغراض والبواعث الداخلية . ويقر بأن الحكم الخلقى ينمو من عادات تكونت فى بيئة خاصة الى مبادىء عامة صالحة لكل أمة وفى جميع الأحوال(١٤) .

على أى اعتبار يصدر :

يقول الدكتور أبو بكر ذكرى : ان جمهرة الأخلاقيين فى جميع الأمم قديما وحديثا تحكم على أن الحكم الخلقى يصدر على العمل والعامل باعتبار قصد العامل وبنيته دون اعتبار انتائج العمل فى ذاتها . فلو أن طبيبا مثلا أراد أن يخلص حياة شخص فى الخطر فعجل بموت المريض ، هنا يصدر الحكم الخلقى على عمل الطبيب باعتبار قصده وبنيته فقط دون النظر الى تلك النتيجة المحزنة . فاذا ما تبين سوء قصده فاننا نحكم بشرية عمله(١٥) .

ان النية والقصد والارادة الطيبة هى وحدها مناط الحكم الخلقى متى حسنت حكمنا بخيرية العمل ومتى ساءت حكمنا بشريته ولا اعتبار

---

(١٤) Makenzies - Manual of Eshics p - p 126

(١٥) علم الاخلاق أبو بكر ذكرى ود. عبد العزيز أحمد ص ١٥٦

لنتـــائج العمل فى ذاتها • ورغم شرعية هـــذه القاعدة لابد من أخـــذ الاحتياط اللازم والحذر اذ أنه من الخطر أن نقول للناس كل أعمالكم خيرة متى حسنت نياتكم فقط ولا قيمة للنتائج • وعموما فان مراعاة هذه الخطورة واجب وعدم الاسترسال مع كل من يدعى حسن مقصده ضرورة ، لأن القرائن لهـــا مكانتها وأهميتهـــا فى الحكم الخلقى على العمل تبعا لنية صاحبه • وبغير تلك القرائن لا يمكن اصدار حكم خلقى على أعمال الناس لأن نواياهم مغيبة عنا ومقاصـــدهم كذلك فى أغلب الأحيـــان •

ولهذا علينا أن نتأمل العمل طويلا لنرى هل فعل صاحبه كل ما فى وسعه لاصابة طريق الخير بعيدا عن المزالق والمضلات ؟ فاذا تبين لنا ذلك قلنا اجتهد فأخطأ فله عذره •

أما فيما يختص بأعمالنا فمعرفة المرء بنوايا نفسه أمر يكاد يكون ملموســـا خاصة والضـــمير بين جوانحنا لا يغفـــل طرفة عين وسرعان ما يصدر حكمه بلا حاجة الى منطق وأقيسة •

الفصل الثالث

المسئولية والسلوك

- ما المقصود بالمسئولية .
- أنواع المسئولية .
- الضمير .
- السلوك .
- الجزاء وأنواعه .

المسئولية والسلوك

ما المقصود بالمسئولية :

فى الواقع أن مفهوم المسئولية ليس مفهوما فلسفيا معقدا • فنحن نستخدمه كثيرا فى حياتنا اليومية • فالمسئولية فى اطارها العام هى الشعور بأداء الواجب والاخلاص فى العمل • ولكن المسئولية الأخلاقية تقسم أفعال الانسان الى ارادية ، ولا ارادية ، وشبه ارادية أى ان الأعمال التى تقع تحت هذه المسئولية انما هى الأعمال الارادية والشبه ارادية •

وهكذا يمكن تعريف المسئولية بأنها تحمل انسان عاقل ذى ارادة نتيجة فعل قام به ، وكان من الممكن ألا يباشره أو هى فى معناها المجمل (حالة المرء يكون فيها صالحا للمؤاخذة على أعماله ، ملزما بتبعاتها المختلفة) •

مما سبق يمكننا القول بأن هناك شرطين أساسيين لتحمل المسئولية •

أولهما : سلامة العقل : أى لابد أن يكون الفعل المحدد للمسئولية صادرا من شخص راشد عاقل • فالرشد والعقل عنصران أساسيان لتحمل مسئولية ما • فلا تصح المسئولية من الشخص اذا كان فاقدا للوعى •

ثانيهما : الارادة والقصد : ان لنية الفاعل وارادته أثرهما الكبير فى تحمل مسئولية فعل ما ، ولكن أثرهما يكون أكثر وضوحا فى الجزاء كنتيجة المسئولية •

وتنقسم المسئولية الى عدة أنواع :

(أ) المسئولية الدينية : وهى التزام الفرد بأوامر الدين ونواهيه والانقياد اليها وقبوله لما يترتب على مخالفتها ، بحيث يكون ملتزما بما ينتج عن هذه المخالفة من جزاءات وعقوبات مقررة .

(ب) المسئولية الاجتماعية : ومبعث هذا النوع من المسئولية المجتمع نفسه فهى اذن التزام المرء بقوانين المجتمع الذى يعيش فيه وبتقاليده ونظمه سوا كانت وضعية أو أدبية ، وتقبله لما ينتج عن مخالفته لها من عقوبات شرعها المجتمع للخارجين على نظمه او تقاليده وآدابه . ودليل قوة هذا الالزام فى هذه المسئولية ما يحدث حين يخرج على نطاقها فرد ما فيلاقى استهجانا من المجتمع مثلا كاظهار السرور فى حفل جنائزى يسوده الحزن العميق .

(ج) المسئولية الأخلاقية : وهى حالة تمنح الانسان من القدرة أمام نفسه ما يعينه على تحمل تبعات أعمالها وآثارها . فاذا كانت المسئولية الاجتماعية تنبع من خارج الذات باعتبارها صدى للمجتمع الخارجى فان المسئولية الأخلاقية على العكس تنبع من داخل الذات أى عن الشعور الخلقى وهو ما أودع فى الانسان من قوة فطرية تسمى (الضمير) والذى يعتبر القاضى العادل داخل ذواتنا وفى أعماق نفوسنا له من القوة والسلطان ما يجعل منه مصدرا للمسئولية ورقيبا على أفعالنا ثم مثيبا أو معاقبا عليها تبعا لما تتصف به من خير أو شر حسن أو قبح ، خطأ أو صواب .

وهكذا يكون للعنصر الوجدانى الأخلاقى أثره الأكبر فى تحديد المسئولية الأخلاقية بالنسبة للانسان . فالخجل والشعور بالذنب وتأنيب الضمير كلها امكانيات طبيعية للمسئولية الأخلاقية . فما هو اذن ذلك الضمير ؟

الضمير :

جاء فى لسان العرب الضمير الشىء الذى تضمره مع قلبك فتقول أضمرت ، صرف الحرف اذا كان متحركا فأسكنته ، وأضمرت فى نفسى شيئا ، والاسم الضمير والجمع الضمائر أو بمعنى السر داخل الخاطر(١) .

ويعرفه الدكتور أحمد أمين بأثاره فى أخلاقه بقوله : هذه القوة الآمرة الناهية تسمى الوجدان(٢) .

ولقد لخص تعريف الضمير الأخلاقى أنه ماهية مزدوجة وتقوم فى الاستحسان والاستهجان أو الموافقة وعدم الموافقة والأخلاق تبدأ حين يكون ثمة موافقة أو عدم موافقة اقرار أو استهجان (الضمير هو ملكة الاقرار والاستهجان)(٣) .

وذهب توما الاكوينى الى أن الضمير هو على نحو الحكم الصادر من العقل(٤) .

وقد ذهب الامام الغزالى الى تفسير الضمير فقال أولا فى بيان النفس ان لها قوتين تسمى كل واحدة منهما عقلا على طريق الاشتراك فى الاسم احداهما القوة العاملة والأخرى القوة العالمة الأولى وهى القوة التى بها ينزع الانسان الى الأعمال الارادية التى منها الحسن ومنها القبيح .

---

(١) القاموس .

(٢) الاخلاق ص ٦٨ ط دار الكتب عام ١٩٦٩ — ط الثالثة .

(٣) الاخلاق النظرية ص ٥٦ — ٥٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٩ .

ويشير ثانيا الى بيان حقيقة الضمير بأنه تلك القوة العـاملة من قوتى النفس • والعقل العملى هو مرجع الأخلاق ومبدؤها هو ما يسمى بالضـــمير(٥) •

فالضمير فى رأى فلاسفة الأخلاق هو القوة التى تعتبر المرجع فى بيان الخـير من الشر والحسن من القبيح والتى تأمر بالأمر وتثيب عليه بالارتياح والطمأنينة وتنهى عن الثـانى وتعاقب عليه بالتـأنيب والندم هذه القوة من قوى النفس رأى بعض علماء الأخلاق أنها فطرية وذهب آخرون الى أنها مكتسبة من البيئة بمعناها الواسع العام وذهب غير هؤلاء وأولئك الى أنهـا فطرية فى جرثومتها وللبيئة والتربية دخل فى نموها وكمالها(٦) •

وأود أن أشير الى أن فلاسفة الأخلاق عندما حاولوا الكشف عن تلك القوة الكامنة فى نفس الانسان ، المودعة فى فطرته (الضـمير) اختلفوا فى حقيقة مفهومها • أهى فطرية أودعها الله فى الانسان وركزها فى طبعه فولد بها • أم هى كسبية بحيث تكون مسـتوردة من خارج ذاته بالمران والممارسة واعتياد الفضائل وارتياد جميل العادات وحميد الصفات وحسن التربية •

فالمذهب الأول : يطلق عليه اسم (مذهب الحاسة الأخلاقية) •

والمذهب الثانى : يطلق عليه اسم (المذهب الكسبى) •

وهناك مذهب ثالث يقف بجانب هذين المذهبين المتقدمين يطلق عليه مذهب (الفطريين العقليين) •

---

(٥) معـارج القدس ص ٢٠ •

(٦) فلسفة الاخلاق فى الاسلام د• محمد يوسف موسى ص١٣٨ ط٣

١ ـ مذهب الحاسة الأخلاقية :

ومن أشـــهر القـــائلين به الفيلســـوفان الأخلاقيان الانجليزيان (شافتسبرى) و (هتشون) •

وقد عرف هؤلاء الضمير بأنه قوة فطرية ، غريزية موضـــوعها الخير والشر • وهذه القوة لا تستند الى كسب ، وانما هى قدر مشترك بين جميع الناس ، وان اختلفت فيهم قوة وضعفا • وكما منح الانسان الحواس الخمس للتمييز ، كذلك منحه الله ســبحانه وتعالى (حاســة أخلاقية) فطرية تميز بين الخير والشر وتحضه على ما تراه حسنا ، بقدر ما تستنكر وتنهاه عن ما تراه قبيحا من الأفعال •

ويرى الفيلسوف الفرنسى (جان جاك روسو) ان الانسان مزود بهذه الغريزة الفطرية كالحيوان ، وانه بهـــذه الغريزة الالهية يفـــرق بين الخير والشر ، مثلما تفرق العين بين السواد والبياض •

هذا الضمير أو (البصـــيرة الفطرية) كما يســـميها (روسو) أحيانا يولد مع الانســـان ، وهو ثقة لا يخطىء ، خير دائما ، ثم هو الوسيلة الوحيدة للهداية فى الطبيعة الانسانية(٧) •

٢ ـ المذهب الكســـبى :

ويرأس هذا المذهب فى العصر المتأخر (استيوارت مل ـ ١٨٠٦، ١٨٧٣) حيث يرى (مل) ان الشعور بالخير والشر الذى نعزوه الى الضمير الأخلاقى انما ينشـــأ عن الترابط الذى تقيمه التجربة والتربية

---

(٧) العقيـــدة والاخـــلاق ص ٢٥١ •

ولهذا ينكر فطرية الضمير ، حسيا كان أو عقليا ويقرر كسبيته ويعتبره قوة من قوى الشعور اكتسبها الانســان من المران والتجربة ومن أجل ذلك كان الضمير ــ فى نظر أصحاب هذا المذهب ــ متفاوتا بتفــاوت الأفراد والجماعت مختلفا فى أمة أو بيئة عنه فى أمة أو بيئة أخرى .

وبمقتضى هذا التفاوت فى التقاليد والنظم والبيئة تتحدد قيمة الفعل كما يتحدد الجزاء عليه .

مذهــب الفطــريين العقليين :

هذا هو مذهب الفيلســوف الألمــانى (كانت ١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) وان كان يتفق مع المذهب الأول فى القول بفطــرية الضمير ، الا أنه يخالفه فى القول بأنه (حاسة) ويقرر أنه (قوة عقلية) ولدت مع الانسان وطبعت فى خلقه الأول . ولهذا قســم (كانت) العقل الى قســمين :

١ ــ العقل النظرى :

وهو الذى يختص بادراك المحسوسات ، ويعتمد فى معارفه على الحس والتجربة فهو لا يصلح أن يكون مصــدرا للأخلاق ، لأنه يعتمد فى أحكامه على الحواس ، وهى كثيرة الخطــأ والضلال . وثانيا لأنه يعتمد على مقدمات لا تؤمن صحتها دائما ، وبطريق قطعى يقينى .

٢ ــ العقل العمــلى :

ويطلق عليه (كانت) اســم الضــمير ويرى انه قوة ، فطرية ، عقلية ، وجدت كامنة فى الانسان ، منذ الازل والى الأبد ، لا تكتسب بالتجربة ، ولا تتوقف على الحواس ، بل لا تتصــل بالمــادة نهائيا ، لأنها ــ كما يقول كانت ــ شعاع من نور هبط من القوة العليا المطلقة

المحدودة ، الى النفس الانسانية ، به تهتدى وبه تميز بين الخير والشر ثم هو فى الوقت ذاته قاض معصوم عن الخطأ فى قضائه وحكم لا يضل فى أحكامه .

ومن أجل ذلك كان نداء الضمير واجب الاستجابة وكانت أوامره مطلقة غير مقيدة بشرط ، أو محدودة بحد . وهذا هو دعامة الأخلاق ، ومصدرها وحارسها ، وقاضيها ، وهو ذلك كله فى وقت واحد ، ومن غير تفرقة فيه بين جانب وآخر ، لأنه جماع الخير(٨) .

ويتخذ من سير (كانت) أن الأخلاق لها الأسبقية على التجربة وهى كامنة فى طبيعة العقل ولا تحدث الأخلاق من التجربة فالنموذجية التى يصطلح عليها (كانت) تعرف عن طريق الكمال الأخلاقى وهنا يكون تصويره للضمير عبارة عن العقل العملى . وان كنا نوافق (كانت) من حيث كونه عقلا عمليا فانه أيضا يشبه الى حد كبير وجهة النظر الاسلامية وعلى الأخص عند الفيلسوفين الاسلاميين الامام الغزالى وابن مسكويه(٩) .

هذا هو مجمل آراء الأخلاقيين فى الضمير ، ولكن يؤخذ على هذه الآراء ما يلى :

الرأى الأول : ان حاسية الضمير لا تضمن الصواب فى أحكامه كما هو شأن سائر الحواس . فقد يتأثر الضمير بعوامل أخرى ، بأن يتأثر بالعواطف والانفعالات والأعراف والعادات فهو عرضه للخطأ وللصواب ويترتب على ذلك اختلاف فى الحكم على أعمال الناس باختلاف احساساتهم ، فيكون الخير عند بعضهم شرا عند الآخرين وبالعكس

---

(٨) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٩) لمزيد من التفصيل راجع كتاب الاحياء باب المحاسبة والمراقبة وتهذيب الاخلاق (النفس) .

وقد وقع ذلك كثيرا فى تاريخ البشرية ، نذكر منها على سبيل المثال من العادات فى الزمن الجاهلى وأد البنات وحسبانه داخلا فى الخيرات بينما اعتبره الاسلام من أقبح الجرائم لأنه مخالف للضمير الا أن العادة قاضية وكذا يتأثر فى أمور اجتماعية • فالضمير قبل العوامل المؤثرة صفحة بيضاء وهو قابل للتربية •

الرأى الثانى : أن الضمير لو كان كسبيا لوقع اختلاف الناس فى تقييم الفضائل والرذائل باختلاف العصور والأمم ، بل وباختلاف البيئات كما تختلف تقاليدهم وقوانينهم وهذا مخالف للواقع ، فاننا نرى الناس متفقين على المبادىء الأخلاقية فى مختلف الأزمان،ومتعدد العصور مهما كان هناك من بعض وجوه التفاوت فى مسائل جزئية ولا تؤثر على أصول الأخلاق المقررة وقواعد السلوك العامة(١٠) •

والمبادىء العامة التى يتفق عليها الناس جميعا ، هى معتمد المشرعين بل هى من جانب آخر الأساس فى احترام هذه القوانين ووجوب طاعتها من الناس جميعا •

الرأى الثالث : وهو رأى الفيلسوف الألمانى كانت فربما كان قبوله للنقد أقل من المذهبين السابقين ، ذلك أن الضمير وان وجد عند الناس جميعا كما يقول الا أنه لم يكن فيهم بمثابة واحدة أو قدر متكافىء • ومن هنا يرى البعض أن حكمنا الأخلاقى على بعض الأفعال مختلفا عن حكم أجدادنا الأولين مثلا • وهذا دليل على أن للتجربة دخلها فى تكوين الضمير •

ولعل هذا باختصار شديد هو ما أورده الامام الغزالى ، عندما سماه أولا (نورا الهيا) مما يمكن تفسيره بأنه قوة فطرية ، وثانيا

---

(١٠) العقيدة والاخلاق ص ٢٠٥ •

(معرفة) مما يبيح لنا القول بأنه قابل كذلك للتأثر فى نموه وكمال حقيقته بعوامل التربية(١١) .

هذا باختصار شديد ما أثير حول هذه الآراء . ولكن أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله يطالعنا برأى عام حول الضمير اذ يرى أنه خرافة استعمله الغرب وأشاد به حينما أراد أن يضع للأخلاق أساسا ومقياسا منفصلين عن الدين ، كان ذلك عندما أراد التخلص من سيطرة الكنيسة فوجدوا الضمير كسراب يتألق فتمسكوا به وأثنوا عليه ورفعوا من شأنه واعتبروه أساسا ومقياسا للأخلاق ، فالضمير عنده متأرجح متغلب لا يستقر له قرار ويرى أن الصحيح بالنسبة لأساس الأخلاق أن تلجأ الى الدين تستمد منه الهداية والارشاد فانه هو وحده المعصوم والضمير يحتاج الى مربى وليس هذا المربى الا الدين(١٢) .

٣ ــ السلوك :

قلنا ان ابن مسكوية عرف الخلق بأنه (حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية) . يتبين لنا أن الخلق أمر داخلى تشتمل عليه النفس وصفة تقوم بها فتطبعها بطابع معين يميل بها اما الى فعل الخير واما الى فعل الشر ، ولكن أفعال الانسان الظاهرة تختلف كل الاختلاف من هذا الأمر الباطنى أو الداخلى . فالخلق فى مفهومه وماهيته شىء ، والفعل الذى من شأنه أن يصدر عنه ويكون مظهرا له شىء آخر .

هذه الأعمال الظاهرة للانسان هى التى يطلق عليها علماء الأخلاق

---

(١١) كتاب الاحياء باب المحاسبة والمراقبة .

(١٢) الاسلام والعقل الدكتور عبد الحليم محمود طه دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ص ٧٠/٧٥ .

اسم « السلوك » • وهي لا تسمى سلوكا الا اذا كانت صادرة عن ارادة لأن خصيصة السلوك الأساسية للانسان أنه ذو أصل ارادى » فهو الذى يفرق بينه وبين فعل الطبيعة وفعل الحيوان ، أما اذا صدرته عن المرء من غير ارادة لها أو تفكير فيها فانها حينئذ لا تسمى سلوكا، وانما تكون تصرفا تدفع اليه الغرائز التى يشترك فيها الانسان والحيوان على السواء •

ويرى ماكنزى أن هربرت اسبنسر فى تعريفه للسلوك بأنه (مجموعة الأعمال الحيوانية المتجهة نحو غاية) لا يقتصر على أعمال الانسان الارادية التى هى موضوع علم الأخلاق ، انما يشمل كذلك أعماله الغير ارادية كما يشمل أعمال الحيوان مع أن أعمال الحيوان — فى نظر ماكنزى — مدفوعة بغرائزه وشهواته لا يوجهها تفكير ولا يقترن بها شعور بغاياتها(١٣) •

يقول الدكتور بيصار اصطلح علماء الأخلاق على استعمال كلمة (السلوك) فى الدلالة على الأعمال الظاهرة للانسان كما اصطلحوا على استعمال كلمة (الخلق) فى الدلالة على أعماله الباطنية • ووضعوا للأول تعريفا يتفق وانسانيته فقالوا (أن السلوك هو أعمال الانسان الارادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة) فالعلاقة بين السلوك والخلق اذا هى علاقة الدال بالمدلول أو الأثر بالمؤثر(١٤) •

غير أن الخلق لا ينفرد بالتأثير فى سلوك الانسان ، وانما هناك عوامل وظروف يتوقف عليها تكييف الصلة بينهما وفاعلية الأول فى الثانى • وعلى كل فان حديثنا عن المسئولية والسلوك يدفعنا الى الحديث عما يتبعها من جزاء •

---

(١٣) Makenzies - Manual of Ethics p - p 127 .

(١٤) بيصار العقيدة والاخلاق ص ٢٥٨ •

الجــزاء وأنواعـــه

قلنا أن المسئولية والجزاء أمران متـــلازمان فاذا كانت المسئولية كان الجزاء ، كما أنه لاجزاء الا على أساس مسئولية • أى ان الجزاء نتيجة طبيعية للمسئولية ولذا يرتبط كل من المفهومين بالآخر ولا يفهم بعيدا عنه • ولهذا فان توفر المسئولية فى الشخص يجعله اهلا للحكم على عمله بالخير أو الشر • ويقرر بعض علماء الأخـــلاق أنه لا معنى لهذه المسئولية ما لم يترتب عليها مثوبة مشجعة أو عقوبة رادعة •

مما تقدم يمكننا تعريف الجزاء بأنه (مثوبة على عمل الخير أو عقوبة على عمل الشر) وهذا يعنى أن كلمة الجزاء استعملت فى كلا المعنيين ، الخير والشر •

أقســام الجــزاء وأنواعه :

١ ــ الجزاء الطبيعى :

يرى أنصار هذا الاتجاه فى الطبيعة أساسا لمفهوم الجزاء بمعنى أن أى مخالفة لقوانينها يؤدى الى عقاب مباشر للمخـــالف • فمثـــلا لو أسرف انسان ما فى تعاطى المنبهـــات أو أسرف فى الأكل والشرب او السهر فمعنى ذلك أنه خـــرج على قانون من قوانين الطبيعـــة هو الاعتدال أو بتعبير الفيلسوف اليونانى أرسطو (الوسط العدل) وهنا يكون الجزاء الطبيعى الذى تفرضـــه الطبيعة هـــو ضعف الصحة أو اختلال فى الجهاز العصبى والهضمى ، وقد يصل هذا الى هلاك الفرد نفسه • وعلى هذا يكون الجزاء الطبيعى هـــو ما يصيبنا من الاضرار المـــادية أو ما ينالنا من المنافع نتيجة لأعمالنا •

وقد ميز علماء الأخلاق بين الجزاء الطبيعى والجزاء الأخلاقى، ذلك لأن القانون الطبيعى ليس قانونا ملزما أو معترفا به بحيث ننصاع له ونسير بموجبه وانما نصل الى فهمه عن طريق التجربة ، وقد يلهينا انغماسنا فى اللذات عن السير فى ركابه ، رغم أننا ندرك تماما الأثر السىء للخروج عليه بعكس الجزاء القانونى والذى نضع له اهتمامات خاصة فى حساباتنا • فما هو اذن الجزاء القانونى •

٢ ـ الجزاء القانونى :

وهو باختصار تسديد الشرائع الوضعية التى تسنها السلطة التنفيذية أو الجمعيات الانسانية والتى ترى أنه السبيل الأكثر فعالية للمحافظة على الحقوق والأوضاع التى تقررها مختلف القوانين ،وذلك يردع من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على حق الفرد أو الجماعة والزامهم بتحمل عواقب خرق القانون • ولكنه فى بعض الأحيان يمنح مكافأت لمن يقومون بأعمالهم خير قيام •

٣ ـ الجزاء الاجتماعى :

وهو بمثابة اعادة الطمأنينة فى نفوس المجتمع واستشعاره لأهمية انتظام فيه • ولا ينبغى الخروج عليه أو الافلات منه أو حتى التنكر له ، حتى يتم التوازن بين سلوك الفرد والمجتمع تفاديا لاختلاف الضبط الاجتماعى • وعادة فى تضامن المجتمع وتماسكه تشيد الجماعة بكل صاحب عمل خير وتحتقر صاحب العمل الردىء وهذه قمة الجزاء الاجتماعى •

وعليه فالجزاء الاجتماعى هو المظهر الوحيد الذى يحقق روح التضامن بين أفراد المجتمع ويتيح لهم ان يقفوا صفا واحدا تجاه

جماعة الخارجين على العقل الجمعي أو الالزام الخلقي الجماعي(١٥) ٠

٤ ــ الجـــزاء الأخـــلاقي :

اذا كانت الســابقة (الطبيعي والقانون والاجتماعي) تستمد وجودها من خارج الذات ، فان الجزاء الأخلاقي ينبع من داخل الذات، وبينما المجتمع هو الذي يقيم أفعـالنا في انعكاساتها الخارجية فـان الضمير هو الحكم على نواياها الباطنية ليصدر علينا حكمه الأخـلاقي الحقيقي متمثلا في وخذه الأليم للجاني فيقض عليه مضجعه ، ويسلب سكينته وقد يزلزل هذا أركان نفسه فتحيله الى شبه حطام بشرى ٠ هذا يعني ان الجزاء الخلقي يستمد كيانه من الضمير أي من داخـل الذات لا من خارجها ٠

مما تقدم يتضح لنا أن الجزاء الأخلاقي يتم بين طرف واحد هو الانســان وذاته (الفاعل وضـــميره) وهذا الجزاء يتخــذ مظهــر الأسف وتأنيب الضمير جزاء ما قدم الانسان من فعل شرير ــ ومظهر الارتياح النفسي الشامل جزاء ما قدم من فعل خير نبيل ٠ ومهما كان الأســف وتأنيب الضمير لهمـا آثرهما العميق في الضغط على النفس فعن طريقهما يشعر الجاني أنه وكانما يزيح عن نفسه عبئا ثقيلا قــد ينقله من ظلام الجريمة ليعود به الى نهار الخير ٠ فالجزاء الخلقي هو ما نشعر به من راحة الضمير وغبطته عند عمل الخير وقلقه وعذابه عند عمـــل الشـــر ٠

---

(١٥) الفلسفة والمنطق،زكي محمد اسماعيل مراجعة د٠ عبد القادر محمود ص ١٥٢/١٥٣ ط الاولى دار النيل الازرق للطباعة والنشر بمدني.

٥ ـ الجـــزاء الأخـــروى :

لكل نوع من أنواع الجزاء المتقدمة أثر لا ينكر فى تقويم السلوك الانسانى ولكن الجزاء الأخروى أقواها أثرا وأوفاها بالغرض والحاجة اليه ماسة لضمان سلامة المجتمع الانسانى ورفاهيته اذ لا يسد غـيره مسدة • وهو ما أعده الله سبحانه وتعـالى فى الآخرة للمحسنين من نعيم مقيم فى الجنة وللمجرمين من عذاب اليم فى النار •

الفصل الرابع

الفضـــــيلة

- معنى الفضيلة .
- اختلاف قيمة الفضيلة .
- أقســام الفضـــيلة .

الفضـــــــيلة

معنى الفضـــــيلة :

ورد فى تعريف الفضيلة كما ذكر عن أحمد أمين أن الفضيلة هى الخلق الطيب ، فاذا اعتادت الارادة شيئا طيبا سميت هـذه الصـفة فضيلة والانسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذى اعتاد ان يختار وأن يعمل وفق ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحا ، فالفضيلة صفة نفسية والواجب عمل خارجى ، وعلى هذا يقال فلان أدى الواجب ولا يقال : ادى الفضيلة بل حاز الفضيلة وعنده ان الفضيلة اخص من الواجب(١) •

ويرى أرسطو أن الفضيلة « ملكة خلقية يكون المـرء بحسـبها صالحا ويقوم بما يتوجب عليه على أحسن وجه »(٢) •

ويحدثنا مسكويه عن الفضيلة ويقول أنها وسط بين رزيلتين هما الأفراط والتفريط وهذا الوسط اضافى لا حقيقى فقد يكون أقـرب لبعض الأطراف فى حالة ولاضدادها فى حالة أخرى •

والذى نلاحظه من رأى أفلاطون أن القوة العاقلة فضيلتها الحكمة ورذيلتها الطيش ، والقوة الغضبية فضيلتها الشجاعة ورزيلتها الجبن، أما القوة الشهوية فضيلتها العفة ورذيلتها الشهوة •

---

(١) احمد أمين الاخلاق ص ١٧٧ •

(٢) د • ماجد فخرى أرسطو ص ١١٤ راجع أيضا الاخلاق لينقوماخوس ج ١ ص ٣٤٧/٣٤٨ •

وفى المقابل نجد آرسطو يقول ان الفضيلة ليست انفعالات لأن الانفعالات ليست طوعية فلم تكن ممدوحة أو مذمومة بحد ذاتها وليست قوة ما لأن القوة فطرية طبيعية والفضيلة ليست من الخصال الطبيعية بل المكتســـبة •

ولهذا تجلى نظام أرسطو كما يلى :

القوة العاقلة فضيلتها الحكمة وهى وســط بين رذيلتى السـفه والبــله •

والقوة الغضبية فضيلتها الشجاعة وهى وسط بين رذيلتى التهور والجـــبن •

أما القوة الشهوية فضيلتها العفة وهى وسط بين رذيلتى الشره والخمـــود •

ويبدو هنا واضحا ان أفلاطون يتفق مع أرسطو فى فضيلة العدالة لكونها وليدة من اجتماع الفضائل الثلاث لنفس واحدة ومن حيث أنها ذات نقيض واحد هو رذيلة الظــلم •

اختلاف قيمــة الفضــيلة :

تأتى الفضيلة على درجات متفاوتة بحسب مراتبها اذ تختلف قيمة الفضائل من مجتمع لآخر ، ذلك لأن ترتيب الفضائل فى كل أمة يجب أن يتبع مركزها الاجتماعى وظروفها الخاصة المحيطة بها • وبموجـب هذا نجد ان الفضيلة فى المجتمع الزراعى غيرها فى الصناعى ، وكذلك فى المجتمع الآخذ بحظ وافر من المدنية غيرها فى المجتمع البــدوى • وفى مجتمع الجزر البحرية غيرها فى مجتمع الصحراء وهكذا •

فالأمة الآمنة المطمئنة ترى العدل خير فضيلة والأمة الحربية ترى

الشجاعة أهم فضيلة وكذلك الأمـة القائمـة على الصـناعة ترى ان الاستقامة والأمانة عماد الفضائل •

ويرى بعض علماء الأخلاق ان مفهوم الفضيلة الواحـدة يختلف باختلاف العصور • فالعدل مثلا تطور مفهومه حسب تطور المجتمع الانسانى وفقا لحالته العقلية والاجتماعية وهكذا الشـأن فى كثير من الفضائل قد هذبها رقى العقل وتقدم المدنية • أما عن حالة الأفراد فان قيمة الفضائل مختلفة من فرد لآخر فمثلا فضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الأهمية بالدرجة التى لها بالنسبة للغنى • ولا فضائل المسن هى نفسها فضائل الشباب وهكذا •

ويرى أحمد أمين أن الناس جميعا مطالبون بفضائل عامـة من صدق وعدل ونحوها يجب أن يتصفوا بها ، وأنهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون فى شىء واحد ، وهو ان كـلا منهم مطـالب ان يتصف بما يناسبه حالته ويتفق مع مركزه الاجتماعى وعمله الذى يؤديه وان اختلف تطبيق ذلك(٣) •

أقســـام الفضـيلة :

وعلى رأى فلاسفة الأخلاق ان بعض الفضائل يمكن آن تدخـل فى فضائل أشمل منها • كالقناعة مثلا فانها تدخل تحت فضيلة العفـة وكذلك الأمانة فانها تدخل فى مفهوم العدل • وهناك بعض الفضـائل تكون نتاج من فضيلتين أو أكثر كالصبر فانه ينتج من فضيلتى العفـة والشجاعة ، والحذر من العفة والحكمة • ويقتضى الأمر أذن ضرورة

---

(٣) كتـــاب الاخـلاق ص ١٧٩ •

معرفة الفضائل التى قد تكون هى آساسا لغيرها ، ومن خلال ذلك لابد لنا من استعراض ما ذهب اليه فلاسفة اليونان حول هذه الأقسام .

ذهب سقراط الى انه « لا فضيلة الا المعرفة (العلم) » واستنتج من هـذه النظرية ما يلى :

١ ــ أن الانسان لا يستطيع أن يعمل الخير ما لم يعلم الخير وكل عمل صدر لا عن علم بالخير فليس خيرا ولا فضيلة ، فالعمل الخير لابد أن يكون مؤسسا على العلم ومنه ينبع .

٢ ــ أن علم الانسان بان الشىء خير علما تاما يحمله حتما على عمله ، ومعرفته بضرر شىء تحمله حتما على تركه ، وليس انسان يعمل الشر وهو عالم بنتائجه فكل الشرور ناشئة عن الجهل أو العلم الناقص ولو علم المرء اين الخير علما صحيحا لعمله حتما(٤) .

وعلل ذلك بان كل انسان بطبيعته يقصد الخير ويحبه لنفسه ويكره الشر من دخيلة نفسه ، فمحال أن يفعل ما يضرها وهو عالم بضرره فما يصدر عن انسان من الخطأ انما منشؤه الجهل بالعمل ، وعلاج الشرير أن يعلم نتائج الأعمال السيئة التى تصدر عنه .ولتعويد انسان الخير وجعله مصدرا للفضيلة يعلم نتائج الأعمال الحسنة .

على اننا نلاحظ أن سقراط توسع فى تطبيق نظريته هذه فاعتبر الانسان الخير هو الذى يعلم ما يجب عليه ، وعنده أيضا أن الملك الصالح هو الذى يعرف كيف يحكم الناس حكما عادلا وهكذا .

---

(٤) لمزيد من التفصيل راجع مقدمة كتاب الاخلاق لارسطو ص٤٦/٥٠ جـ١ .

ورد (أرسطو) على نظرية (سقراط) ردا مقنعا فقال : ان سقراط جهل أو تناسى ان نفس الانسان ليست مركبة من العقل وحده، وتخيل ان كل أعمال الانسان خاضعة لحكم العقل ، ومن ثم اذا علم العقل صدر العمل ولكنه نسى أن أكثر أعماله محكومة بالعواطف والشهوات واذ ذاك قد يقع فى الخطأ مهما علم العقل .

وعلى رأى سقراط ليس هناك فى الحقيقة الا فضيلة واحدة وهى المعرفة ، وان شئت فسمها الحكمة ، وليس غيرها من الفضائل كالشجاعة والعدل والعفة الا مظهرا من مظاهرها وصادرة عنها . وقد ذهب الرواقيون الى أن الفضائل ليست عديدة وقالوا أن الفضيلة واحدة تحت أسماء عديدة .

أما أفلاطون فقال : ان الفضيلة الحقة ليست مجرد عمل الحق فان العمل الحق قد يصدر على أساس باطل . انما الفضيلة الحقة هى العمل الخير الذى يصدر عن علم بما هو الحق ولو كان هو الحق ، ومن ثم قسم الفضيلة الى فضيلة فلسفية وفضيلة عادية .

الفضيلة الفلسفية : هى العمل الخير الذى أسس على العقل وصدر عن مبدأ أعتنق بعد تفكير . ولهذا فهى فضيلة الفلاسفة ونوابغ الناس . وقد قال : ان الانسان لا يستطيع أن يظفر دفعة واحدة التى هذه الفضيلة بل لابد أن يمر على دور الفضيلة العادية ثم يرقى منها الى الفضيلة الفلسفية .

الفضيلة العادية : فهى العمل الخير الذى نشأ عن عرف أو عن تقاليد أو غريزة أو عن شعور طيب . وهى أيضا فضيلة العامة وأشباههم ، يعملون الخير لأن الناس يعملونه من غير تفكير فى علة خيريته . وقد قال عنها أفلاطون انها أيضا فضيلة النمل والنحل ونحوهما فهى تعمل أعمالا طيبة لا عن علم .

وأود أن أشير الى أن أفلاطون كان يوافق أستاذه أولا فى ان الفضيلة واحدة ، ثم عاد وقال بتعدادها ، بحجة ان للانسان قوى متعددة من عقل وشهوة الخ ولكل قوة من هذه عمل خاص ، وعن اعتدال كل قوة تنشأ الفضيلة • ويرى ان أصول الفضائل أربعة هى : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل • ويفيد أيضا بان فى الانسان قوى ثلاث هى :

القوة العاقلة وهذه اذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الحكمة •

والقوة الغضبية وهى اذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الشجاعة •

والقوة الشهوية أو البهيمية وهى اذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة العفة •

ويقول أفلاطون أن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ينشأ عنها العدل ، فالعدل تتصف به النفس عند اداء هذه القوى الثلاث وظائفها باعتدال وعندما تكون متساندة بحيث تتعاون كل قوة مع الأخرى •

يقول أحمد أمين ان هذا التقسيم لم يسلم من نقد ، فان الحكمة اذا فسرت بمعناها الواسع الذى يقتضيه اللفظ شملت جميع الفضائل من شجاعة وعفة وعدل وغيرها ، فكل شيء لابد ان يتصف بالحكمة ليكون فاضلا(٥) •

أما أرسطو فكان يذهب الى أن جماع الفضائل (خضوع الشهوات لحكم العقل) وبعبارة أخرى (تسليم زمام الشهوات للعقل يقودها) فالفضيلة عنصران : العقل والشهوة • فلابد من شهوة لتضبط فالزهاد الذين يقتلعون الشهوات من جذورها فى ضلال مبين ،

---

(٥) الاخلاق ص ١٨٢ •

لانهم ينسون أو يجهلون ان الشهوات جزء أساسي من الانسان فاستئصالها ضار بطبيعته ،مضيع لشطر منه،بل ان استئصال الشهوات مضيع للفضيلة لأن الفضيلة ــ كما بينا ــ معناها شهوات موجودة يضبطها العقل ، لا شهوات معتدلة ، ومن ثم كان هناك طرفان ينبغي تجنبهما : الطرف الأول محاولة استئصال الشهوات ، والطرف الثاني ارخاء العنان لها،انما الفضيلة الاعتدال بحيث لا تطغى الشهوات على العقل ولا يطغى العقل عليها فتستأصل(٦) .

وقد جر هذا القول أرسطو الى وضع (نظرية الأوساط) والتى سبق أن أشرنا اليها وهى (كل فضيلة وسط بين رذيلتين) ولكن كيف نعرف نقطة الوسط ترك أرسطو هذا الأمر للظروف المحيطة بالشخص فما يعد كرما بالنسبة لانسان قد يكون اسرافا أو بخلا بالنسبة للآخر .

وقد اعترض على هذه النظرية بجملة اعتراضات :

١ ــ ان (الوسط) فى هذه النظرية يفهم منه (المنتصف) وليس ذلك بصحيح ، فليست الفضيلة دائما فى نقطة (المنتصف) بالضبط فالشجاعة مثلا أبعد من الجبن منها عن التهور والكرم أقرب الى نقطة السرف منه الى نقطة البخل وهكذا .

٢ ــ هناك من الفضائل مالا يظهر فيها أنها أواسط بين رذائل كالصدق والعدل ، فليس هناك الا كذب أو صدق ، عدل أو ظلم .

٣ ــ ليس لدينا مقياس مضبوط يبين لنا المنتصف بيانا تاما .

آراء بعض المحدثين فى تقسيم الفضائل :

قالوا ان الفضائل تنقسم الى فضائل شخصية ،وفضائل اجتماعية وفضائل دينية .

---

(٦) المصدر السابق ص ١٨٣ .

الفضائل الشخصية ، تشمل ضبط النفس عن الانهماك فى اللذائذ وهو (العفة) تزيد على ذلك ضبطها عن الاسترسال فى الألم وشدة الخوف منه وهو (الشجاعة) . بالاضافة الى تهذيب النفس ونعنى حملها فى العمل وفق العقل وهو (الحكمة) .

الفضائل الاجتماعية : وتشمل (العدل) وهو أداء الحقوق للناس وكذلك (الاحسان) وهو أداء ما يحتاجون اليه فوق حقوقهم .

الفضائل الدينية : وتشمل ما يلزم الانسان الاتصاف به لخالقه .

وقد اعترض على هذا التقسيم ، اذ يرى بعض علماء الأخلاق انه تصحيحا لذلك يمكن أن يقال : ان الفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد وتجعل ملكاته وقواه فى حالة تعادل ورقى .

وأما الفضائل الاجتماعية فهى الفضائل التى تجعل الانسان فى وفاق مع من حوله من الناس وترقى شئونهم . ان النوعين من الفضائل (الشخصية والاجتماعية) يتوقف كل منهما على الآخر . فاذا أنعدمت الفضائل الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للمجتمع ولا ايصال لحقوق الناس واذا انعدمت الفضائل الاجتماعية ساءت أخلاق الفرد، فهما فى حقيقتهما متفاعلتان ومرتبطتان . ورغم هذا الارتباط نجده لا يخل بالتقسيم .

وعليه فاننا لا نستطيع الآن حصر كل الفضائل ولكننا سنختار بعض الفضائل الهامة لمزيد من التوضيح .

١ — الشجاعة :

هى مواجهة الخطر أو الألم عند الحاجة فى ثبات ، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذى يرى النتائج ثم

يواجهها فى ثبات رجل شجاع • وذكر فى تعريفها كما جاء عن أرسطو أنها الخشية من الآفات والشرور • ويرى الغزالى ان الشجاعة فضيلة القوة الغضبية اذا انقادت للعقل المتأدب بالشرع فى اقدامها واحجامها •

ويبدو أن البلاء الحسن أو الجرأة الناجمة عن الخبرة أو الغضب أو الحماسة أو الاقدام بعضها من آثار الشجاعة وبعضها من مبادئها اذ البلاء الحسن بلحاظ الأثر وهكذا الجرأة الناشئة عن خبرة مسبقة والغضب من المبادىء المؤثرة وكذا الحماسة والاقدام (٧) •

ويقول (لوسن) أن جوهرها — أى الشجاعة — يقوم فى ديالكتيك انفعالى يتضمن ثلاث لحظات • الأولى : هى جرثومة الشجاعة وفيها تظل الشجاعة سرية • والثانية : تتجلى الشجاعة فى الزمان والمكان على أنها مفاضلة وتؤثر فى التصميم • والثالثة : فيها ينحل التقابل بين الموضوعية والذاتية فى سمو الضمير الشجاع ويمكن تشبيه الشجاعة بالقفز على البراعة (٨) •

ومهما يكن من أمر فان من أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد ، فشجاع من اذا عراه خطب لم يذهب برشده ، بل يقابله برزانة وثبات •

ولا يفوتنى أن أشير الى ان الشجاعة تصدق على كلا الجنسين (الذكر والأنثى) وانما الغلبة للذكور لتعلمهم على الشدائد والمحن ولخشونة مزاجهم وتحملهم على متاعب الحياة بخلاف المرأة فانها مبنية على النعومة وطراءة الجسم • ومهما كان الأمر يكون الدور الاخلاقي فى الشجاعة للذكر والأنثى ان يقللا حدة الأفراط فى كل من الجانبين بحسب الوعاء المناسب لتحمل الشجاعة •

---

(٧) محمد طاهر علم الاخلاق ص ٥٢ ط دار ومكتبة الهلال بيروت •

(٨) بحث فى الاخلاق العامة ص ٥٣٥ ط ٣ باريس عام ١٩٤٧م •

٢ ـ العفة (ضبط النفس) :

وهى اعتدال الميل الى اللذائذ وخضوعه لحكم العقل ، وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية كالانفعالات والعواطف • ويرى ماجد فخرى ان العفة قصد بها الوسط بين الانغماس فى الملذات والاقلاع عنها جملة(٩) • وتعرف أيضا بأنها الاعتدال فى تناول لذات الحواس(١٠) • ولكن كما يبدو أن بين التعريفين صورة جمع لان الميزان هو الاعتدال فى خط الحواس•

وفضيلة العفة تتطلب من الانسان القصد فى اللذائذ فان هو أفرط فانهمك فى شهواته أو فرط فأماتها وبالغ فى الزهد فقد حاد عن سواء السبيل • وخير طريق فى الحياة أن ينيل الانسان نفسه ملذاتها الطيبة ويعطيها مشتهياتها ما لم تخرج عن حدود الأخلاق فذلك أقرب الى طبيعتها وأدعى الى نشاطها •

وجاء فى الميزان : العفة هى انقياد القوة الشهوية بسهولة ويسر للعقل حتى يكون انقباضها وانبساطها بأمرته واشارته وبذلك يكون المرء حرا غير مستعبد لشهواته وهى وسط بين الشره والخمود وكل منها رذيلة ، فالشره افراط هذه القوة بالمبالغة فيما لا يرضاه العقل من اللذات ، والخمود عدم انبعاث الشهوة الى ما يرى العقل نيله من مطالب ورغائب فيها سعادة وخير(١١) وأهم أنواع العفة ما يلى :

(أ) العفة فى الطعام لأن المطلوب من الشخص بأن لا يحمل معدته أكثر من طاقتها ويعطيها بما يناسبها من غذاء وشراب •

---

(٩) أرسطو ماجد فخرى ص ١٢٢ •

(١٠) الاخلاق النظرية الدكتور عبد الرحمن بدوى •

(١١) الميزان ص ٦٧ ــ ٦٨ الغزالى •

(ب) العفة فى الجنس ينبغى عدم الاسترسال فى الشهوات الجسمية وعلى الانسان أن يتخذ أسلوبا وسطا فى مقاربة الجنس ، فان الاكثار منه يكون اتجاهه الى جانب البهائم والقلة منه يوجب الاقلال من الانماء البشرى فكان خط العفة السير على نمط الاعتدال .

(جـ) العفة فى الفكر فلا يتركه يهيم فى كل واد ، ويتجول فى كل مجال ، فالفكر اذا حام حول الشرور يوشك ان يقع فيها . وسبق ان بينا ذلك عند الكلام فى العادة .

وعلى الجملة فى العفة حفظ الصحة وطمأنينة العقل والسعادة والحرية . وهى باختصار شديد (العفة) تقع فى خط وسطى ترشد الى ناحية العقل وتقلل من نشاط الشهوة فى الجنس والمال والطعام والشراب . وليست العفة بمعنى التقشف لأن التقشف يعنى الحرمان بينما العفة تسير نحو الركب المعتدل . فالعفيف يختلف عن سائر الناس فى انه يلتزم القاعدة الصحيحة فى طلب الملذات(١٢) .

٢ - الصدق :

يعرف الصدق بأنه أساس من أسس الفضائل ، وأنه المطابق للواقع ، فهو الأخبار بالشىء على ما هو عليه . ويترتب عليه أيضا الأخلاص فى العمل والوفاء ، وهو ان يخبر الانسان بما يعتقد أنه الحق . ولكننى أرى أن هناك طريقة واحدة للصدق وهى (ان يقول الانسان الحق كل الحق ولا لشىء غير الحق) يقول ﷺ : « ان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق

---

(١٢) راجع أرسطو الاخلاق - الاخلاق الى نيقوماخاس المقالة ٣ الفصل ١٤ ص ١١٩/١١ - ١٩ .

حتى يكتب عند الله صديقا • وان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »(١٣) • وقد شدد الامام الغزالى رحمه الله تعالى على صدق اللسان حيث قال : وذلك لا يكون الا فى الأخبار ، أو فيما يتضمن الأخبار ماضيا أو مستقبلا ويندرج تحته الوفاء بالوعد والخلف فيه • وحق على كل عبد ان يحفظ الفاظه فلا يتكلم الا بصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها(١٤) •

وما نشاهده الآن فى مجتمع الحياة الدبلوماسية من تمويه وتغيير فى الأساليب السياسية يعد من أنواع النفاق وكتم الحقائق واظهار شكليات فارغة هى خلاف التقويم الأخلاقى ؛ ولكن مع ذلك تعاريف عليه المجتمع السياسى وجعلوه من سلوكهم الخاص ، الا أن الميزان الأخلاقى يطارد هذا السلوك ويعتبره من نوع المخادعة والرذيلة لأن المطلوب من الفرد أو المجتمع أن يظهر العمل على طبق حقيقته من غير التواء أو تمويه بل على صبغته الواقعيــة حتى يتناسب مع التقييم الخلقى • وقديما قال أرسطوا الكذب الا يثق الناس بقولك حتى تصدق والنفاق يظهر غير ما يبطن •

فاذا تطابق الصدق قولا وعملا جنينا ثمرة الوفاء والجد وصدق العزيمة والثبات • ولنلزم أنفسنا بقول الحق كل الحق فى كل حال وان نؤثر الصدق فى حياتنا من غير زيف أو اسدال ستار على الحقيقة •

٤ ـ العــــدل :

فالعدل فى المجتمعات الانسانية هو اعطاء كل ذى حق حقه ، ذلك لأن كل فرد من أفراد هذا المجتمع له الحق فى التمتع بنصيب من الخير

---

(١٣) رواه الشيخان •

الذى ينال المجتمع • فأخذ الانسان نصيبه لا أكثر واعطاؤه النـاس حقوقهم لا أقل هو العدل • ويحدثنا الامام الغزالي في احياء العلوم أن العدل جماع كل فضيلة كما ان الجور جمـاع كل رذيلة وعـلى هـذا لا تكون العدالة واحدة من الفضائل الأربع بل تكون جملتها معا(١٥)•
ويقول أفلاطون فى تفسير العدالة : فى النفس ثلاث قوى شهوية تعنى بحاجات الجسد ومركزها البطن وفضيلتها العفة وغضـبية هى مثـار النوازع ومركزها الصدر وفضيلتها الشجاعة وعاقلة هى مجتمع الحقائق مركزها الرأس وفضيلتها الحكمة واذ يشارك الانسان سـائر الحيوان بالقوتين الأوليين يتميز عنه بالثالثة فينبغى له اذا ان يخضع قوتيـه الشهوية والغضبية لقوته العاقلة فاذا فعل نشأت عنده فضيلة رابعـة هى فضيلة العـدالة(١٦) •

أما العدالة بالقياس الى المجتمع ويعبر عنها بالعدالة الاجتماعية وذلك يتجلى فى صورة حفظ الحقوق بين الأفراد على نحو المسـاواة من غير تقديم فرد على فرد من حيث العنصر والقومية أو الدونيـة ، فان تقديم جانب على جانب يكون خلاف العدالة • وذكر أفلاطون فى كتابه السياسة أنه لابد من دمج النموذج الاجتماعى بالنموذج الفردى من أجـل اطلاق شرارة العـدل وقـد قسم العـدل الى ديناميكى واستاتيكى(١٧) •

(١٤) يقسم الامام الغزالى الصدق الى ست مراتب ـ صدق اللسان ـ الصدق فى النية والارادة ـ صدق العزم ـ الوفاء بالعزم ـ الصدق فى الاعمال ـ الصدق فى مقامات الدين راجع احياء علوم الدين جـ٤ ص٣٨٧/ ٣٩٣ ود • عبد اللطيف محمد العبد الاخلاق الاسلامية ص١٥٤ ـ ١٥٥ •

(١٥) احيـاء العلـوم جـ ٣ ص ٧٨ •

(١٦) الوجز فى مسـائل الفلسفة الاسلامية د• كمال اليـازجى ص ١٩ ـ ٢٦ ط ١٩٧٥/١ •

(١٧) أفلاطون السياسة ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ •

والمقصود من العدل الديناميكي هو ان ينظر الى تطبيق القاعدة على وجه حسن كما في صورة القاضي والمعلم ، فالعدل الديناميكي يفرض الشروط على القواعد لتتصف بصفة أخلاقية ويكون في دور التغيير .

وأما المراد من العدل الاستاتيكي أن يقع في حدود الجماعة التي اتجهت القاعدة اليها .

وعموما فالمجتمع العادل هو المجتمع الذي له من النظم والقوانين ما يسهل لكل فرد من أفراده ان يرقى نفسه على قدر استعداده لأن كل انسان مطالب ان يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر استطاعته . فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالأمة كلها آثمة ظالمة .

وثمة أمر هام خاص بالعدالة وهو المساواة اذ كثيرا ما يقرن العدل بالمساواة ، ويعتقد ان العدل في المساواة والظلم في عدمها . والمطلوب في المجتمعات الانسانية المساواة في كل شيء المساواة أمام القانون وفي الحقوق والمناصب وفي التصويت في الانتخاب .

وكثيرا ما تسمع ويقول الناس (الرحمة فوق العدل) يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل ـ وهذا ليس بصحيح على الاطلاق ، بل قد يكون صوابا وقد يكون خطأ .

وجملة القول ان الجملة صحيحة اذا كان الذي ترحم هو الذي يملك حق العدل ثم يتنازل عن حقه في العدل ويرحم . أما الرحمة حيث يكون العدل من حق غيره فخطأ بين(١٨) .

---

(١٨) أحمد أمين كتاب الاخلاق ص ٢١٥ .

الفصل الخامس

نظرة عاجلة حول أسس الأخـلاق فى الاسـلام

- القرآن الكريم .
- السنة النبوية المطهرة .
- أقوال العلمـاء .
- شمول الأخلاق فى الاسلام .
- آراء الفلاسفة الأخلاقيين المسلمين .

نظرة عاجلة حـول
أسس الأخلاق فى الاسـلام

يركز الاســلام على الأخلاق تركيزا عظيمـا لتعم فى الأرض الفضيلة والخير والسلوك الحســن ليكون الفرد باعث خير ومعروف ، لأن الأخلاق الاســلامية تنظر الى الفرد على أســاس انه جـزء من جماعة عليه أن يجتهد فى اعطائها ما يحقق صلة الأخوة بينه وبينها ، كما أن عليه أن يمتنع عن ظلم هذه الجماعة أو الاعتــداء عليها • ومن خلال هذا العرض التحليلى يتبين لنا أن الأخلاق الاسلامية تستند الى مجموعة أسس ، هذه الأسس وان كانت متفــاوتة من حيث التــأثير والأهمية الا أنها تشترك جميعا فى تكوين الأخلاق التى شرعها الاسلام ومن هذه الأسس ما يلى :

أولا : القرآن الكريم :

لقد رســم القرآن الكريم من حيث هو كلام الله المنهج والميزان الذى تقاس به الأعمال الخلقية ، وبين نماذج عديدة للشخصية الخلقية المثلى التى تبرز الارتباط الكامل بين أسس الايمان والخلق الفاضل من جهة ، والتى تثبت امكانية تحقيــق الأوامر الايمــانية فى الواقع والتى هى قيمة الالتزام الخلقى من جهة أخرى • وقريب من هذا المعنى قوله تعالى فى تحديد الايمان الصادق نفسه « انمــا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفســهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »(١) •

« انمــا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت

---

(١) ســورة الحجرات الآية ١٥ •

عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون • والذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • أولئك هم المؤمنون حقا ••• لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »(٢) •

وفى معظم آيات الايمان فى القرآن الكريم نجد الانفاق أو قرينته ملازمة للايمان الصادق ؛ لأن الانفاق مركز الشح ، ومظنة الهوى ومصدر الغواية وطريق الضلال • والتحكم فيه والقدرة عليه هو المبنى والمعنى للقيمة الأخلاقية عند المؤمن ، ومهما حاولت المجهودات الانسانية وضع الجهد الأخلاقى وضعا أسمى من هذا فلن تتمكن من ذلك قولا وفعلا • يقول الدكتور عبد الرشيد : ليس للجهد قيمة أخلاقية الا من حيث هو وسيلة لتحقيق بعض الخير الأخلاقى ولما كانت النفس الانسانية عاجزة عن الخضوع للقانون الأخلاقى برضاها الكامل ، وبدافع الحب ، ولما كان الانتصار على الشر يكلفنا دائما تضحية ، ويفرض اكراها على ذات الانسان • فان الكفاح يصبح فى كل مكان وزمان شرطا فى الفضيلة والوسيلة الوحيدة لاكتساب السلوك الحسن(٣) •

ولا شك أن الفضيلة ــ كما يقول الدكتور عبدالله دراز : ليست ثمرة خالصة من ثمرات الطبيعة المحضة ، كما أنها ليست نتيجة الاكتساب المطلق ، ذلك أن أسوأ الناس ، وأكثرهم شرا لا يخلو من أن تكون فى نفسه بذرة طيبة يستطيع استخدامها فى صراعه ضد

---

(٢) سورة الانفال الآية ٢ ، ٣ ، ٤ •

(٣) الاسلام واللغة والتاريخ د• عبد الرشيد عبد العزيز سالم، مكتبة التراث الاسلامى ص ٥٠ القاهرة •

خلقه الخبيث ، كما أن أطهر الأنفس لا تستغنى مطلقا عن بعض الجهد كيما ترتقى فى مراتب الجزاء(٤) •

لهذا كنا فى حاجة دائمة الى جهد متفاعل مع نية طاهرة لمقاومة الميول الخبيثة التى تحثنا على الشر ، لأن هذه الميول قوة معادية تريد أن تقهرنا ومهمتنا العاجلة الملحة أن نسكت ثورتها • وهذه الحال لا تتم الا بطريقين طريق فطرى ، أو جهد خلاق تتفاوت مراحله طولا وقصرا بتفاوت بنى الانسان قال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين »(٥) •

والقرآن الكريم لا يتركنا نهبا لخواطر مبعثرة عن كيفية هذا الجهد بل يقودنا مباشرة اليه « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم »(٦) « ونعم أجر العاملين »(٧) لهذا كانت الاتكالية هى العدو الأول للأخلاق الاسلامية •

واذا كانت أغلبية المذاهب تقوم على أساس مبدأ وحيد هو (الواجب) أو (الخير) فان المنهج الأخلاقى فى القرآن قد جمعها معا • فالواجب لابد أن يكون فى الخير والا كان مرفوضا أصلا قال تعالى « يا أيها الذين امنوا أركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »(٨) •

---

(٤) دستور الاخلاق فى القرآن د• محمد عبد الله دراز ص ٥٩٣ •

(٥) سورة العنكبوت الآية ٦٩ •

(٦) سورة التوبة الآية ١٠٥ •

(٧) سورة آل عمران الآية ١٣٦ •

(٨) سورة الحج الآية ٧٧ •

وتأصيلا لهذه القيم الأخلاقية السامية يدعونا القرآن الكريم أن نتحمل الآلام التى تصاحب هذا الجهد ، وأن نتمسك فى شجاعة بخيوط غاياتنا العليا « وان تصبروا خير لكم » • وتبقى المسئولية الأخلاقية ـ نية وعملا ـ متعلقه بصاحبها لا يتأتى فيها تحويل أو امتداد أو اشتراك أو التباس حتى بين الآباء والأبناء • يقول د• عبد الرشيد عبد العزيز: اذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين مثلا عن الأمثلة التى لقنوها لنا ، والعادات التى أخذناها عنهم ، واذا كنا مسئولين عن الطريقة التى استعملنا بها هذه التركة ، فلا يجوز مطلقا أن نتحمل معهم وزر ما عملوا أو يتحملوا معنا وزر ما نعمل •

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »(٩) •

وكلنا والحمد لله يعلم المضمون الأخلاقى لكثير من الأيات الكريمة سواء كان فى النية أو العمل ولا حاجة بنا الى الاستطراد بشرحها وتحليلها والوقوف على المواد الدستورية الأخلاقية المستقاة منها • انها وآيات أخرى فى سورة الفرقان « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(١٠) •

هذه الآيات تعد جماع الفضائل الانسانية التى لا يوجد لها نظير فى الكتب السماوية الأخرى أو فى الدساتير الوضعية • ومن جميع

---

(٩) سورة البقرة الآية ١٣٤ ، ١٤١ وللمزيد من التفصيل انظر دستور الاخلاق فى القرآن د• محمد عبد الله دراز من ص ٥٩٤ ـ ٦٨٤ والاسلام واللغة والتاريخ ص ٥٣ • •

(١٠) سورة الفرقان من الآية ٦٣ الى ٧٦ •

ما تقدم نتبين أن القواعد الأخلاقية أو أغلبها فى القرآن الكريم تشتمل على أمرين (أداء واجب) و (تحقيق خير) • يقول د• عبد الله دراز : (أداء واجب جوهرى) (وواجب كمال) ويبدو القــرآن فى النقطة الأولى متشددا ، لا يقبل آى مساومة ، ولكنه فى الثانية تتحول صراحة الأمر فيــه الى حث وتشــجيع • وهكذا يجب أن تتضــمن أنظمتنــا الاجتماعية كلها جانبا ثابتا محافظا ، يصان عن هوى الناس وصروف الظروف••وجانبا ديناميكيا متطورا متحررا ، وبذلك تتحقق أحلامنا فى الاستقرار والتغيير وحاجاتنا الملحة للنظام والتقدم(١١) •

وكذا كل آيات الوصايا والاخبار فى القرآن الكريم التى يتعلم منها أصول السلوك الشامل لجميع جوانب الحياة • يقول الدكتور أمير عبد العزيز : ان مفرق الحق والباطل فى الأخلاق انما يستبين فى ضوء القرآن الكريم الذى ميز بين الخير والشر وبين الفضيلة والرذيلة قال سبحانه وتعــالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمــات الى النور »(١٢) وقال سبحانه « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات آن لهم أجرا كبيرا »(١٣) •

ولدى التأمل لهــذه الآيات وأمثالها ـ وهى كثيرة فى القــرآن الكريم ـ يجد أنها ترتكز على ربط الايمان بالعمل ويظهر ذلك فى صورة سلوك يتوجه به صاحبه الى الناس ، ولعل ذلك هو الذى جعل القرآن الكريم ينفر من شخصية المنافق فى كثير من الآيات القرآنية لأن النفاق دليل على ضعف الشخصية المتخلقة به فضلا عن آثاره الوضعية(١٤)

---

(١١) دستور الاخلاق فى القرآن ص ٦٨٣ •

(١٢) ســـورة البقــرة الآية ٢٥٧ •

(١٣) ســـورة الاسراء الآيــة ٩٠ •

(١٤) دراسات فى الثقــافة الاســلامية ص ٢٢٧ •

ولا أملك هنا الا أن أقف، وقفة مع التعلة التى يتعلل بها الناس للخروج على هذه القيم الأخلاقية ـ الشيطان ـ انهم يلقون عليه كل شيء وليستريحوا من عذاب الضمير • والحقيقة أن قوة الشر النابعة من الشيطان لا سلطان لها على ضمير الانسان ما لم يستسلم لها بهواه وارادته ، أو بضعف منه عن مقاومة الاغراء •

فالانسان مدرك لأبعاد فعله ، مسئول عنها مسئولية مباشرة وهو قادر فى أدنى حالاته الانسانية على قهر هذا الشيطان بل والسيطرة عليه ، لأن التوازن بين مادته وروحانيته الاسلامية جعلت كيد هـذا الشـيطان وتسـلطه ضـعيفا قال تعالى « ان كيـد الشـيطان كان ضـعيفا »(١٥) •

وعلى كل فان هذا الشـيطان فى الاسـلام ضعيف خائر القوى لا يملك لنفسه شيئا كما لا يملك للآخرين حجة أو برهانا • وهذا يعنى ان قوته مهزومة بقوة الضمير الانسانى العامر بالايمان اذن فمن أطاعه فهو فى الحقيقة أطاع نفسه وظلمها •

لذلك كان الالزام الخلقى الذى يستبعد الخضوع المطلق ، مثلما يستبعد الحرية الفوضوية ، ويضع الانسان فى موضوعه الحقيقى بين المـادة الصرف والروح الصرف وتتأكـد به مسئولية الارادة البشرية وقدرتها على الالتزام وحمل الأمانة والتكليف •

ولقـد أقر القرآن الكريم مجموعة من الجزاءات الأخلاقية منهـا الجزاء ذو الطابع الاصلاحى ، بمعنى أنه عندما يسـلك سـلوكا معينا خاطئا فان القرآن يلزمه باصلاح ما ترتب على هذا السلوك وهو يتمثل

---

(١٥) سـورة النسـاء الآية ٧٦ •

في تأنيب الضمير والندم والتوبة : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ، يجد الله غفورا رحيما »(١٦) .كما أقر الجزاء الاستحقاقي وهو رد فعل للقانون الأخلاقي بممارسته مباشرة وتلقائيا . ولا يسع الانســان الا أن يتحمله رضى أم لم يرض ، بمعنى أنه ينزع الى نوع من التقـدير للذات ، ويؤدى اما الى ارتفـاع فى القيمة الانســانية واما الى هبوطها ، والجزاء ــ هنا ــ حسى ومعنوى ، فالكفاح جزاؤه النصر ، والاعتدال الصحة ، والادمان والرذيلة جزاؤهما النتائج الضارة للجسم والعقل ثم هناك جزاء فى الآخرة(١٧) .

يقول سعيد حوى فى كتابه الاسلام : ان الفعل الأخلاقى له هدف خاص أو قريب وهدف عام أو بعيد . أما الهدف القريب الخاص فهــو احترام الذات ، بمعنى احترام الانسان لذاته ولانسانيته ، وهو هدف مباشر . أما الهدف البعيد فهو رضا الله عن طريق العمل الصالح وفى هذا ضمان لسعادة الدنيا والآخرة « وقيل للذين اتقوا ، ماذا أنزل ربكم ، قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حســنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين »(١٨) .

وأول الطريق فى تحقيق الأهداف الأخلاقيــة ، انمــا هو ضبط

---

(١٦) سورة النساء الآية ١١٠ وانظر الانعام ص ٥٤ .

(١٧) د. محمد عبد الله دراز دســتور الاخلاق (مرجع سابق) ص ى ح ، ى ظ وانظر الجزء الاخلاقى فى بالآخرة والدنيا فى الآيات القرآنية الآتية : سورة فصلت الآية ٣٤ ــ والمائدة الآيه ٩١ والاسراء الآيه ٢٩ والطلاق الآية ٢ ، ٣ ، ٤ والزمر الآية ١٠ وهــود الآية ١ ، ٢، ٣ والبقرة ٩٧، ٢٢٢ والمؤمنون الآية ١١١ والاحزاب الآية ٤٧ والسجدة ص ١٧

(١٨) ســورة النحل الآية ٣٠ .

النفس بمعيار العبودية لله ، فلا يظهر خلق من أخلاقها الا فى الحدود التى حدد الله عز وجل(١٩) .

وفي القرآن الكريم نجد مجموعة من أمهات الفضائل الأخلاقية يتميز بها المسلم مثل : البر ، والوفاء ، والصبر ، والصدق والخوف من الله ، والانفاق فى سبيل الله والعدل ... وغير ذلك(٢٠) .

هذا الى جانب أن القرآن الكريم قد نص على أخلاق للموضوعات والأنشطة المختلفة فى حياة الانسان ، فهناك - على حسب تصنيف الدكتور عبد الله دراز - أخلاق(٢١) .

- دينية وموضوعها الله ، وهى الأساس لبقية الجوانب .
- فردية وهذه موضوعها الانسان نفسه .
- أسرية وهذه موضوعها الأسرة والعلاقات الأسرية .
- اجتماعية وموضوعها المجتمع المسلم والعلاقات الاجتماعية .
- دولية وموضوعها الدولة والعلاقات الدولية .

وهكذا حدد القرآن الكريم وفصل أخلاقا للأنشطة المختلفة فى

---

(١٩) سعيد حوى الاسلام - أربعة أجزاء معا - مراجعة وهبة سليمان مكتبة وهبة ١٩٧٧ .

(٢٠) انظر سورة البقرة الآية ١٧٧ والانفال ٢ : ٤ والمؤمنون الآية ١ - ١١ والنور الآية ٣٧ والفرقان الآية ٣٥ - ٣٧ والفتح ٣٩ .

(٢١) د. محمد عبد الله دراز : دستور الاخلاق فى القرآن وقد اعتمدنا عليه فى هذا التصنيف .

حياة الانسان وحدد ــ كما بينا ــ مسئوليته فى التزامه بهذه الأخلاق(٢٢) ٠

وبناء على ما سبق فان مسألة الاعتقاد فى هذه الأخلاق القرآنية وانبثاق الحياة عنها ، ليست فكرا مجردا ، لا علاقة له بالواقع ، وانما هو مسائل تتصل بالعقل والروح والنفس والقلب ، وبواقع الحياة كلها ٠ والهدف الذى تهدف اليه هذه الأخلاق القرآنية ، هو الرضا الالهى ، والقياس الخلقى الذى توزن به الأعمال انما هو مقدار مايحصل بها من هذا الهدف المقدس(٢٣) ٠

ثانيا : السنة النبوية المطهرة :

وهى الأساس الثانى بعد القرآن الكريم فى الاسلام وهى تفسير وتوضيح لكلام الله سبحانه وتعالى الوارد فى القرآن الكريم قال تعالى: « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »(٢٤) ٠

أما فى مجال الأخلاق فقد حفلت السنة المطهرة بالسلوك التفصيلى لكيفية الارتقاء فى السلوك وصولا الى الأمثل منه اما عن طريق اجابات الرسول ﷺ على أسئلة السائلين ٠ واما عن طريق بيانه ﷺ لما يجب أن يكون عليه المؤمن ، واما عن طريق النهى عما ينقض الايمان أو يعرض صاحبه للخسران ، وحسبنا أن نذكر نموذجا من سنة رسول الله ﷺ ــ اضافة الى ما سبق ــ فى هذا الشأن فنقول :

---

(٢٢) لمزيد من التفصيل انظر المرجع السابق ، والاتجاه الاخلاقى فى الاسلام لمقداد يالجن (دراسة مقارنة) ط أولى مكتبة الخانجى بمصر ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٣م ٠

والامام الغزالى ــ احياء علوم الدين وغيرها من الكتب المتخصصة ٠

(٢٣) السيد محمد باقر الصدر فلسفتنا ص ٤٤ ٠

(٢٤) سورة النحل الآية ٤٤ ٠

ان رسول الله ﷺ قال وحوله عصابه من أصحابه :« بايعونى على الا تشركوا بالله شـيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك »(٢٥) •

ومما ورد فى الحديث من بيان انما هو تمثيل للايمان كله وبيـان لما يجب أن يكون عليه المسلم من دماثة الخلق وحسن الاستقامة •

فالرسول ﷺ هو القدوة الكريمة فى سـلوكه والمنهج الأخلاقى فى تصرفاته القولية والفعلية أى أنه مثالا ومقياسـا حقيقيـا يجب أن يحتذى لأنه ﷺ أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكان فى سـلوكه وأخلاقه يسير على هدى القرآن الكريم لا يتجاوزه • ولهذا عندما سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن أخلاقه ﷺ قالت : كان خلقه القرآن(٢٦) •

وصدق الله العظيم حين يقول فى حق رسـول الله ﷺ : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(٢٧) وفى آية أخرى يقول الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشـداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سـجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا »(٢٨) •

---

(٢٥) رواه البخارى عن عبادة بن الصامت •

(٢٦) رواه الامام أحمد فى مسـنده •

(٢٧) سـورة التوبة الآية ١٢٨ •

(٢٨) سـورة الفتح الآية ٢٩ •

ثالثا : أقوال العلماء :

العلماء الذين هم أهل الاجتهاد من فقهاء وأصوليين ومفسرين لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ تعد أقوالهم من الأسس التى تستند اليها الأخلاق الاسلامية ، لأن هؤلاء يبذلون الجهد من أجل استنباط الأحكام والمعانى والحقائق المدعمة بالدليل من نصوص الكتاب ومن سنة الرسول ﷺ . وليس المقصود الأقوال المجردة للعلماء من غير دليل والتى تتم بمحض الرأى الشخصى أو المزاج(٢٩) .

وعلى هذا فان اجتهاد أهل العلم واستنباطهم للأحكام من مدلولات كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يساعد كثيرا فى تبيان الحلال من الحرام والحق من الباطل ويساعد كذلك فى تحديد القواعد السلوكية والفضائل الأخلاقية .

وبعد : فهذه هى بعض الأسس والموازين التى تقاس بها الأعمال الخلقية فى الاسلام ، أما ما ذهب اليه البعض من اتخاذ العرف كأساس من الأسس الأخلاقية بحجة أن الشريعة أقرت بعض الأعراف ، وأيضا اتخاذ الفطرة من هذه الأسس بحجة أن فى النفس قوة غريزية بلاءمة حقائق الأمور هى الفيصل الذى ترد اليه الأعمال بها تفرق بين الحق والباطل وتميز بين الخير والشر كما تميز الباصرة بين الأحمر والأصفر مثلا .

فانا نقول لهؤلاء : ان الشريعة الاسلامية وان أقرت بعض الأعرافة ما لم تكن مخالفة لشىء من كتاب الله وسنة الرسول ﷺ كما قال الرسول ﷺ « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا »(٣٠) .

---

(٢٩) دراسات فى الثقافة الاسلامية ص ٣٢٨ .
(٣٠) رواه البخارى فى كتاب الانبياء .

فان الأســاس والقاعــدة الأخلاقية ترجع فى هذا القرار الى ما أقرته الشريعة الاسلامية ، فلا حاجة بنا اذن الى العرف خاصة وان الأعراف تختلف تبعا لاختلاف الأمم ، ولمساوقة الفواعل التى نشــأت عنها وجوه الاختلاف فى الخلق والخلق(٣١) .

فأهل برنوا(٣٢) زين لهم العرف ان أحداً لا يستحق أن يخطب فتاة حتى يلقى عند قدميها هامة انسان ، فان عجز عن ذلك عد فى حكم العرف جبانا عند أبناء عشيرته غير كفء بخطبه هذه الفتاة . وبعض الأعراف درجت على ألا يعتدوا الغلام فى مصاف الرجال الا بعد أن يظهر براعة ومهارة فى اللصوصية .

أما ما ذهب اليه القائلون بالفطرة كأساس من الأسس الأخلاقية فانا نقول لهم : ان من يستقرىء التاريخ يرى أن الفيلسوف اليونانى زينون كان يقول بهذا الرأى . فقد كان مما يدعو اليه رياضــة النفس وامتحــانها بحرمانها من مشــتهياتها وتطهيرها من أرجاس الشــهوة وأدناسها ، اذ تمكن النفس منهما يطغى ويحول بينها وبين العقل علمته تلقينا والهاما فاذا أعطيت المراد من شهوات وقتها تعدته الى شهوات قد اســتحدثتها(٣٢) .

ونقول أيضا : نعم ان الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها وان كانت تفرق بين الحق والباطل والخبيث والطيب ، الا أنه يعرض

---

(٣١) راجع الخلق الكامل ص ١٨٧ ودراسات فى الثقافة الاسلامية ص ٣٢٩ وبحث الدكتور محمد عبد الصبور هلال الاخلاق ومكانتها فى الاسلام مجلة كلية أصول الدين والدعوة العدد السابع ١٩٨٩ .

(٣٢) هم قبائل الى القرب من بحيرة تشاد بأفريقيا . راجع الخلق الــكامل ص ١٦٠ .

لها ما يعطلها أو يصرفها عن الســداد عندئذ يرى الانسان الخير شرا والحسن قبيحا • لهذا يقول ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(٣٣) •

وعلى هذا فلا يصح أن يكون العرف أو الفطــرة أساسا خلقيــا يركن اليه ولا رائدا يعول عليه •

رابعا : شمول الأخلاق فى الاســلام :

ان الأخلاق الاسلامية شاملة لكل الجوانب الانسانية ومن بينها:

(أ) أخلاق الفكر :

فمن أخلاق الفكر أن يبتعد المسلم بتفكيره عن سفاسف الأمور وأن يتوجه الى كبائر الاهتمامات ذات الصلة الوثيقة بالانسان فى تقيمه وتصوراته وعقائده وفيما يصــبوا اليه من كرامة واجلال وأن يتحرى الحقيقة فى انصــاف وتجرد وحياد وأن يصــبر على التفكير والتدبر والبحث عن كل نافع مفيد من الأفكار والعلوم ، وأن يبتعــد عن رذائل الأمور ليظفر بالارتقاء فى سلم الكمال الخلقى فى مجال أخلاق الفكر لأن من شأن المسلم صــاحب الخلق الكريم أن يكون ذا تفكير ســليم لا زيف فيه ولا انحراف(٣٤) •

فالقرآن الكريم يحمــل على اســتعمال العقل والمنطق ورؤية الصــواب والخطأ والتمييز بين الحق والباطل بالحجــة والمشــاهدة الحســية ، وليس بالقسر أو التقليد الأعمى(٣٥) وما ذلك الا لأن كل

---

(٣٣) رواه البخــارى •

(٣٤) مجلة كلية أصول الدين ص ٦٦ العدد السابع (مرجع سابق)

شرائع الاسلام تقوم على الايمان ، والايمـان الصحيح هو الإيمـان الذي يقوم على العلم ، واذن فكلمـا علم الانسـان وآمن بمـا علم ازداد ايمانه . ولذا فان هناك فرقا بين الايمان المجمل والايمان المفصل فرق كبير بين من يؤمن على وجه الاجمال بأن ما أمر الله به فهو خير ، وكل ما نهى عنه فهو شر ، وبين من يعرف بالأدلة العقلية أو التجريبية الحسية ــ الخير الكامن فى أمور معينـة نهى الله عنها(٣٦) ولذا نجد آيات كثيرة فى القـرآن تقوم على اسـتخدام العقل بجميع قدراته الفكرية وأساليب تفكيره فضلا عن الأسلوب التجريبى .

(ب) أخلاق النفس :

ان من أخلاق النفس أن تمتلىء بمحاسن الأمور كالصـبر والعفة وعلو الهمة وعفوها عن اسـاءة المسىء والترفع عن سـفاسف الأمور ونبذ الحقد والحسد الى غير ذلك من أمور كثيرة . قال تعالى على لسان لقمان : « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمشى فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير »(٣٧) .

فالاسـلام يبتغى للنفس أن تكون مهذبة بعيـدة عن كل ألوان العيوب النفسـية لأن النفس لها تأثيرها الكبير وخطرها البالغ الذى يقود الى السلوك كيفما كان .

---

(٣٥) د. محمد فاضل الجمالى نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الاسلامى الدار التونسية للطباعة والنشر ١٩٩٧م .

(٣٦) د. جعفر شيخ ادريس فى منهج العمل الاسلامى ــ كلمة التحرير ــ المسلم المعاصر العدد (١٣) ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م .

(٣٧) سـورة لقمان الآية ١٧ ــ ١٩ .

(جـ) أخلاق السـلوك الظاهر :

ان أخلاق السـلوك الظـاهر تعد تعبيرا حقيقيـا عما فى داخل الانسان من أخلاق لأن المسلم لا يقتصر فيه على باطنه النفسى فقط بل وعلى الظاهر كذلك ليكون مستقيما فى كيانه كله ، يتوافق فيه الظاهر والباطن • يقول الدكتور أمير عبـد العزيز : من التناقض الغريب أن يتسم باطن الانسان بالاسـتقامة مع الانحراف فى مظهره الخارجى فان استقامة الباطن تستلزم بالضرورة استقامة السلوك الظاهر • أمـا اذا كان الظاهر مستقيما والباطن خبيثا فذلك يعنى النفاق الذى يشوه الانسان •• ومن الخطأ والجهالة أن يتصور البعض أن كمال شخصية المسلم يتحقق فى حسن النية وحدها ولا غضـاضة بعد ذلك أن يكون الظاهر على غير منهج الاسلام ، وذلك خطأ فاحش وجهالة لا تطاق فان من أبسط مفاهيم الاسلام أن يكون الظاهر سليما مستقيما مثلما تكون النية سليمة مستقيمة(٣٨) •

(د) الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية :

الأخلاق الاسلامية أيضا تتناول جانب السلوك الفردى وجانب السلوك الاجتماعى لأن المجتمع الاسلامى كله ينبغى أن يجلله الخلق الـكريم •

هذا ومن الأخلاق الفردية التى تتناول جانب السلوك الفردى أن يلتزم المسلم بشمائل الأخلاق كالصـدق والاسـتقامة والمروءة وحفظ الأمانة والنظام والحزم والقناعة الى غير ذلك •

ومن الأخلاق التى تتنـاول جانب السـلوك الاجتماعى الحلم

---

(٣٨) دراسات فى الثقافة الاسلامية ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ •

والتسامح وحب العطاء ، والشجاعة ولين الجانب والوفاء ، يقول الأستاذ عبد الرحمن حبنكة : لقد بلغت الأخلاق الاجتماعية فى الاسلام من الرقى العظيم ما جعلها فى مركز القمة بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقة للروابط الاجتماعية بين الأفراد ومؤثرة تأثيرا عميقا فى تغذية وحدة الجماعة الاسلامية وتنمية روابط المودة والاخاء بين المسلمين(٣٩)

وفى قوة ترابط المجتمع الاسلامى القائم على الأخلاق الفاضلة بين الأفراد والجماعات يقول الرسول ﷺ : مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى(٤٠) ٠

هذا وقد نهى القرآن نهيا قاطعا عن جملة من الأفعال ، التى تؤثر سلبيا على المجتمع ، وفرض عليها عقوبات ٠ ذلك أن هذه الأفعال تعد جرائم تهدد البناء الاجتماعى للأمة ونظامها ، وذلك حفاظا على الكليات الخمس التى عنى الاسلام بالمحافظة عليها وهى النفس ، والدين والنسل والعقل والمال ٠ وهى جميعا مما يتصل بتوفير الحياة واعلاء الكرامة الانسانية وجعل فيها شفاء للمجنى عليه من شر الترة ، وحنق المظلوم وتعويضا عادلا عما يقع عليه من أذى ، وردعا لذوى النفوس الشريرة من الجهر بالمعصية والايغال فيها(٤١) ٠

فالقرآن ينهى عن قتل النفس أو الاضرار بها ويفرض القصاص عقوبة للقتل ويحمى الاموال ويحرم أكل أموال الناس بالباطل ويحرم الرشوة والغش والربا والاختلاس وأكل مال اليتيم ٠ وبالجملة يحرم

---

(٣٩) الثقافة الاسلامية الاولى ص ٢١٥ ٠

(٤٠) رواه الامام مسلم فى صحيحه

(٤١) د٠ حسين فوزى الاسلام والسياسة ص ١٠٨ ٠

القرآن كل ما يعرض النظام الاجتماعى للفساد(٤٢) • فيحرم خيانة الامانة والايذاء بلا داع ، والظلم والتواطؤ على الشر والزنا والدفاع عن الخونة والغدر والخداع والشهادة بالزور ، وكتمان الحق وقول السوء، وسوء معاملة اليتيم والسخرية من الناس واحتقارهم والتجسس والاغترار والغيبة •

••• وهكذا نجد القرآن يحرم ممارسة أى مرض اجتماعى ليقضى عليه قبل أن يستفحل ويستشرى خطره• ويعتبر هذا هدفا من أهم أهداف المنهج القرآنى •

آراء الفلاسفة الأخلاقيين المسلمين

نقلت الى المسلمين الأخلاق اليونانية فى عصر الترجمة ، وكان لديهم بالاضافة اليها قواعد اسلامية للاخلاق مصدرها الكتاب والسنة وتلك النماذج الأخلاقية التى تمثلت فى حياة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين • ولهذا نجد أن الأبحاث الأخلاقية تدور حول معرفة الخير والشر وتعريف الفضائل والتحذير من الرذائل • وقد اعتبر المسلمون أن الرذائل أمراض يجب التوقى منها والعلاج اذا حلت بالمرء • فكأن علم الأخلاق عندهم علم للطب النفسى • ومنهم من كان يرى أنه سلوك مكتسب أى أن الفضائل والرذائل تكتسب بالتجربة فى المجتمع ومن خلال ممارسات الفرد الأخلاقية مع الآخرين • ومع ذلك فان فلاسفة الاسلام على اتفاق تام فى اقامة المبادىء الخلقية على أساس التوفيق بين موقف الأخلاق الوضعية ومبادىء الأخلاق الدينية •

---

(٤٢) انظر دستور الاخلاق فى القرآن ، وتفصيل آيات القرآن الكريم لجول لا بوم •

ولتأكيد ذلك لابد لنا من الوقوف على آراء هؤلاء الفلاسفة آخذين فى الاعتبار رأى كل منهم على حدة •

١ ـ الكندى : (أبو اسحاق الكندى ولد فى أواخر القرن الثانى الهجرى)

وردت فلسفته الأخلاقية فى رسالتين الأولى (فى التنبيه على الفضائل) والثانية (فى تسهيل سبل الفضائل) ويرى بعض علماء الأخلاق أن جماع فلسفته الأخلاقية فى رسالته (الجبلة لدفع الأحزان) فى الحزن وأسبابه قال : أن نبين ما الحزن وأسبابه لتكون أشفيته ظاهرة الوجود سهلة الاستعمال •

فقد كانت رسائل الكندى فى الأخلاق صورة صادقة لثقافة عصره الذى اتسم بمزج الفلسفة بالتعاليم الدينية(٤٣) • ولذلك كان ينادى الى الأخذ بأوفر نصيب من سبل الفضيلة والبعد بأكبر قدر عن الرذيلة حتى يكون المرء متبعا لأمر الله ومنتهيا عما نهى عنه لتنعم روحه نعيما أبديا خالدا •

وقد روى عنه الشهرزورى انه كان من أقواله : من ملك نفسه ملك المملكة العظمى واستغنى عن الموت ، ومن كان كذلك ارتفع عنه الذم وحمده كل واحد وطاب عيشه(٤٤) •

فاذا نظرنا الى مقولته هذه يتأكد لنا مدى تلاحم الدين مع النظم الاجتماعية والدساتير الانسانية بل واتحاد تام مع نظم الحياة اليومية العامة • وهذا بلا جدال دلالة لمن يريد الظفر بالخير والهداية ، واجابة

---

(٤٣) انظر محاضرات فى الفلسفة الاسلامية د• صلاح الدين خليل عثمان ط الامانة شبرا مصر ص •

(٤٤) كتاب نزهة الارواح ص ١٧٥ •

الدعوة لتحقيق الاستقرار النفسي وازالة القلق الذي تورثه الشكوك .

وقد نقل عنه ابن مسكوية رأيا خالصا له في ضرورة معرفة المرء عيوبه ليسعى في اصلاحها قال : ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه أن يتخذ صور جميع معارفه من الناس فهي مرآة له تريه صور كل واحد منهم عندما تعرض له الآلام الشهوات التي تثمر السيئات حتى لا يغيب عنه شيء من السيئات التي له . وذلك أن يكون متفقدا سيئات ، فمتى رأى سيئة بادية من أحد ذم نفسه عليها وكأنه فعلها ، وأكثر عتبه على نفسه من أجلها ، ويعرض عليها كل يوم وليلة جميع أفعاله حتى لا يشذ عنه شيء منها ، فاذا وقفنا على سيئة من أفعالنا اشتد عذلنا لأنفسنا عليها ، ثم نقيم عليها حدا نفرضه ولا نضيعه(٤٥) .

ان هـذا الرأى الذى أورده الكندى يحكى في مضـمونه منهجا خلقيا كاملا وسليما ، يشير فيه الى ضرورة الارتقـاء بالنفس ، لتكون بعيدة عن محيط الرذيلة ، وقد أفرد لها رسالة كاملة خلدها فيها موضحا شعورها بذاتيتها ومدى استمتاعها بالسعادة الروحية الكاملة .

٢ ــ الفارابى (المتوفى ٣٣٩هـ) :

يعتبر أبو نصر الفارابى من أقدر فلاسفة الاسلام ، وبالرغم من أننا نفتقر اليوم الى كتاب جامع لفلسـفته في الأخلاق الا أن القارىء لكتابه آراء أهل المدينة الفاضلة ، وكتابه التنبيه على سبيل السعادة ، وكتابه السياسة المدنية يتبين له كيف اهتم الفارابى بالأخلاق والسياسة معـــا .

ويرى الفارابى في كتبه هذه أن معرفة الخير هي رأس كل معرفة

---

(٤٥) تهذيب الاخلاق ص ١٥٨ ط الحسينية بمصر ١٣٢٩هـ .

لأن السعادة عنده هى الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلا ولافى وقت من الأوقات لينال بها شىء آخر ، وليس وراءها شىء آخر يمكن أن يناله الانسان أعظم منها فهو يقول فى كتابه : « الأفعال الارادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة والهيئات • والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى الفضائل • وهذه هى خيرات لأجل ذواتها بل انما هى خيرات لأجل السعادة ، والأفعال التى تعوق عن السعادة هى الشرور وهى الأفعال القبيحة(٤٦) •

هكذا كانت خلقية الفارابى تسمو وترتقى وتبين آداب المعيشة والمعايشة اليومية ، على أننا يمكن أن نلمح من خلال عرضه للأخلاق الفاضلة فى كتبه أنه يرى كأفلاطون أن الفضيلة فطرية ، ورغم هذا فهو يشير الى أن هناك من الأفعال الشريرة ما يعوقنا عن اتيان الفضائل ونحن نسعى فى النهاية الى السعادة ، تزيد على ذلك أنه يرى أن حياة اللذة أو الشرف أو الغنى أو غير ذلك لا تؤدى بنا الى السعادة الكاملة الحقة ، فسعادة المرء القصوى وغاية حياته ينبغى أن تكون فى ممارسة الحكمة وهى فضيلة ، وهى أعلى فضائل النفس الناطقة •

ان الفارابى يتحدث عن العمل الصالح وبلوغ السعادة ، ويرى أن العمل الصالح أو العمل الحسن هو الذى يعد وسطا بين الافراط أو التفريط اذ أن الافراط أو التفريط مضر بالنفس والجسد معا، ومعنى هذا أن الفارابى يدعونا الى الموقف الوسط • فالشجاعة تعد وسطا بين التهور والجبن والكرم وسط بين البخل والتفريط •

ويلاحظ هنا مدى تأثر الفارابى بالفلسفة اليونانية مع تكيف واضح مع الاسلام ومبادئه الأخلاقية •

---

(٤٦) المدينة الفاضلة ص ٤٧ •

٣ ــ أخوان الصفا :

تحتل رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر الاسلامى ، فبالاضافة الى أنها شملت الجوانب الالهية والطبيعية والرياضية قسمت الأخلاق الى قسمين الأول منها جبلى والثانى كسبى. فالأول منهـا يفيد بل يركز على أن الأخلاق مبنيـة على فطـرة المرء واستعداداته • أما الثانى الكسبى فهم يشيرون فيه الى تلك الأخلاق التى تكون ثمرة تعود والأخذ عن الآباء والأهل والأصدقاء وغيرهم ممن يألفهم المرء ويميل الى التطبع بأخلاقهم • فالمرء عندهم لا يكون خيرا الا اذا صـدر فى عمله خير ومن طبيعتـه الحقيقية • وعن رأيهم فى الفضيلة نجدهم يسيرون فيه على نهج وصفائهم من الفلاسفة فهى اعتدال وتوسط •

وفى الرسائل يقولون : ان الزهد عون على جودة الحفظ وذكاء الفهم وجلاء القلب وانه خصـلة طيبة نبيلة تتبعها خصـال كثيرة من محاسن الأخلاق وجميل الأفعال •

أما عن نظرتهم للسعادة فهى لا تختلف عن نظرة الفلاسـفة المسلمين وهى أن يبلغ الانسان من الكمال العقلى درجة تجعل نفسـه مستعدة لقبول الالهام من الملائكة فيصل الى مرتبة الحكيم(٤٧) •

والحقيقة التى يلمسها أى فرد هى أن الشخص الذى يريد بلوغ السعادة لا يتم له ذلك الا بعد تهذيب نفسـه واصلاحها من كل رأى فاسد والعمل على انتشالها من ظلمات الجهل والشبات والرتابة ، حتى تنطلق لتطهير ذاتها من كل دنس وينال المرء من بعد ذلك السعادة والرضا التام فى حاضر ومقبل حياته •

---

(٤٧) الرسـائل الجزء الثانى ص ٣١٦ •

٤ ـ ابن مسكوية : (٣٢٠هـ ـ ٤٢١هـ) :

يعتبر من أقوى فلاسفة الأخلاق ، فقد منحها قدرا كبيرا فى دراساته وخصص لها من المؤلفات ما جعلها تفى وتحوى الغرض المطلوب • فقد أعطى بحق البحث حقه وبلغ الغاية من التحقيق الدقيق. وهو ككل الأخلاقيين يرى أن الغاية من العمل الخلقى هى السعادة والكمال الانسانى • ويعرف الخلق بأنه حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية(٤٨) •

ويأتى مسكوية الى نقد المذهب الرواقى الذى يقول ان الناس خلقوا أخيارا بالطبع ثم تعمل البيئة عملها فيتحول بعضهم للشر ثم يتبعه بتزييف الرأى المقابل ويحكى رأى جالينوس الذى يذهب الى أن من الناس الخير بالطبع الذين لا ينتقلون للشر وهم قليلون والشرير بالطبع الذين لا ينتقلون للخير وهم كثيرون ، والمتوسطين بين هذين الضربين وهؤلاء ينتقلون للشر أو الخير حسب البيئة التى ينشئون فيها وأخيرا يتعرض لرأى أرسطو وهو أن كل خلق يمكن تغييره فلا يكون اذا شىء منه بالطبع(٤٩) •

وقال ان هناك بجانب الفضائل الأخلاقية الأربعة (الحكمة والعفه والشجاعة والعدالة) فضيلة أخرى للنفس هى بها أشبه وأنسب أعنى التشوق للمعارف والعلوم وطلبها كما تقدمت الاشارة لذلك لأن تمام النفس الناطقة هو بالاستكمال بالعلوم والاتحاد بالعقل الفعال(٥٠)

---

(٤٨) تهذيب الاخلاق ص ٨ •

(٤٩) الصدر السابق ص ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ •

(٥) المصدر السابق ص ١٣ •

وقسم السعادة الى خمسة أقسام أحدها فى صحة البـــدن ولطف الحواس والثانى فى الثروة والأعوان وأشـــباهها والثالث أن تحســن أحدوثته فى الناس وينتشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم الرابع أن يكون منجحا فى الأمور وذلك اذا استتم كل ما دوى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه ، الخامس أن يكون جيد الرأى صحيح الفكر سليم الاعتقادات فىدينه وغير دينه بريئا من الخطأ والزلل جيد المشورة فى الآراء .

ويرى د. توفيق الطويل أن لابن مسكويه كتبا كثيرة فى الأخلاق ولكن أهمها كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، فقد وضعه لايضاح الطريق الى السلوك المستقيم بعد دراســـة علمية تجعل التزام هـــذا السلوك سهلا ميســـورا لا كلفه فيه ولا مشقة . وابان أن الفضـــائل أواسط بين أطراف متباعدة والخير عنده هو ما يبلغ الكائن المريد كمال وجوده وهو ما يقصده الكل بالشوق(٥١) .

ويقول مســـكوية ان الانسان ذو فضيلة روحانيـــة يناسب بها الأرواح الطيبة التى تسمى بالملائكة وذو فضيلة جســـمانية يناسب بها الأنعام لأنه مركب منهما .

هكذا وضع ابن مســـكوية مذهبا فلســـفيا فى الأخلاق قال عنه (دى بور) الهولندى انهمذهب جديد يوحى ويشير الى ســـداد فى التفكير وسعة فى الثقافة وهـــذه بلا شك أو ريب دلالة أخرى على أن منطق الأخلاق الاسلامية سليم ومعافى واضح المعالم وسهل المنال وأن روحه تساير العصر فى كل زمان ومكان وآن .

---

(٥١) د. توفيق الطويل فلسفة الاخلاق ص ١٣٩ .

٥ ـ ابن سينا :

يرى ابن سينا أن البحث فى الأخلاق يتطلب منا التمييز بين أفعال الخير وأفعال الشر أى بين الفضيلة والرذيلة ، فالخير عنده يفيض بالضرورة عن الله تعالى ولهذا فان أفعال الخير تغلب أفعال الشر فى هذا العالم ، فالموجودات على هذا النحو فى رأيه تكون سابحة فى عالم الخير ، وتنال منه بحسب قدرتها واستعدادها • أما السعادة القصوى فانها تتحقق لدينا فى تطلعنا للوجود ونظامه وبديع صنعه وكمال مبدعه الأول وهو الله • فان أراد الفرد السعادة القصوى عليه أن يتفكر فى ملكوت السموات والأرض وأن يجيل فكره وبصره فى خلق الله ثم عليه أن يحسن التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، أى بين الفضائل والرذائل واذا استطاع التمييز فى أفعاله فانه سيحصل على سعادة يعجز عن نوالها أى جاهل • اذ أنها فوق كل لذة وتتجاوز اللذات جميعا من حيث أنه (أى ابن سينا) قد قسم اللذات الى خسيسة وعالية فيكون مطلوب النفس الخيرية طلب اللذات العالية وهذه هى فضائل الحكمة والتأمل فى الوجود •

ونود أن نشير الى أن ابن سينا يذكر أن للنفس ملكة تستطيع بواسطتها التمييز بين الخير والشر وهذه الملكة ليست فى العقل لأنه يقول ان التمييز بين أفعال الخير والشر انما يتم بلا روية ، أى بلا تفكير ولما كانت الملكة غير الوجدان أو غير الضمير أو غير أى نوع من الانفعال أو الشعور ، أو هى ليست الهاما صوفيا ينبغى لنا أن نشير الى أنها نوع من الطباع أو المزاج أو الفطرة المغروسة فى النفس •

واذا كان ابن سينا لا يقول بالاكتساب بل بالفطرة والنفس عنده مجبولة على التمييز بين الخير والشر جاز لنا أن نتساءل لماذا يفعل البعض الشر مع أنهم مجبولون بالفطرة على الخير ؟ يقول ابن سينا :

ان هذه الأفعال والأفكار الفاسدة انما تحجب صفاء النفس وفطرتها ومن ثم ينحرف الانسان عن الفطرة والأمر على هذا النحو فى مجال الأخلاق •

هذا هو موقف ابن سينا فى مسار الأخلاق من حيث أن التجربة الأخلاقية انما تستند الى الفطرة السليمة التى تسمح بجودة التمييز بين الفضيلة والرذيلة • الى أن ابن سينا قد تأثر بالاضافة الى هذا بالموقف الارسطى وذلك فى تعريفه للفضيلة • فأرسطو يرى أنها الوسط المعدل بين افراط وتفريط كليهما رذيلة • وقد تبنى ابن سينا هذا الموقف الذى كان شائعا فى المحيط الاسلامى وجعل منه ركنا من أركان فلسفته الأخلاقية • ولعلنا نتساءل هل يتفق القول بتوسط الفضائل على هذا النحو مع ارجاع ابن سينا الأخلاق الى الفطرة • ان الذى يقول بالفطرة يعنى أن لدى المرء بفطرته وبملكاته الأصيلة قدرة على التمييز بين الخير والشر أو بين الفضيلة والرذيلة وانه يعلم تماما ما هو خير وما هو شر، وهذا يتفق مع قول أفلاطون الفضيلة علم والرذيلة جهل ، يقصد علما فطريا • أما نظرية أرسطو فهى نوع من الفكر القائم على التجربة والخبرة ، والذى يؤهلنا فى نهاية الأمر للتدريب على ادراك الفضائل وتحديدها • وكأن الانسان فى نطاق الأخلاق الأرسطية يحتاج الى ممارسات فعلية كثيرة وعملية لكى يستطيع الاجادة فى التمييز بين الفضائل والرذائل واصدار الأحكام الخلقية المطابقة للأفعال • وهذا نجد أن الأخلاق عند أرسطو علمية أما قوام الأخلاق عند ابن سينا فهى الفطرة واستناد الفطرة بحقيقة الخير والنفور من الشر بالطبع ، ومن ثم فهى أخلاق أقرب الى أفلاطون منها الى أرسطو • وعلى هذا تصبح اضافة وسطية الفضائل الى أخلاق ابن سينا اضافة تلفيقية ، اذ أنه لم يكن من الطبيعى أو من المنطقى أن تنضاف أخلاق قائمة على الخبرة الى أخلاق قائمة على الفطرة والعلم والنظر •

٤ ـ أبو حامد الغزالى : (٤٥٠هـ ـ ٥٠٥هـ) :

يعد كتابه « احياء علوم الدين » أهم ما كتبه الغزالى فى مجال الأخلاق يقول فيه : « فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور »(٥٢) وفى « المعارج » يرى أن العقل كالأس والشرع كالبناء ولن يغنى أس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أسس • وأن العقل يعلم كليات الأمور لحسن الصدق والعدل والعفة ونحوها(٥٣) •

ويتألق نجم الغزالى عند كلامه على الفضيلة فمرة يعرفها بأنها العقل المحمود عقلا وشرعا ، وحدد المحمود بأنه « الوسط » كما وصف الطرفين اللذين يقع بينهما هذا الوسط بأنها رذيلتان مذمومتان يقول فى ذلك : والمحمود عقلا وشرعا هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان » • ويحددها (أى الفضيلة) مرة أخرى بأنها اعتدال وقواها اركان النفس الأربعة وهى قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة الحكمة والعدل • يقول الغزالى : وحسن قوة الغضب واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة • وأما الحكمة فيسمى أفراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا ، ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذى يختص بالحكمة • والعدل ليس له طرفان زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور

اذن أمهات الأخلاق وأصولها عنده أربعة : الحكمة ، والشجاعة والعفة والعدل • والباقى فرعها ••• كما يقول :

فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت ، حصل حسن

---

(٥٢) الاحياء ط سنة ١٣٢٦هـ الجزء الثالث ص ٣ ـ ١٤ •

(٥٣) معارج القدس ط الاولى ١٣٤٦هـ ص ٥٩ ـ ٦١ •

الخلق وهى : قوة العلم ـ قوة الغضب ـ قوة الشهوة ـ قوة العدل بين هذه القوى الثلاث • أما قوة العلم حسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقاد ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال • فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة • والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهى التى قال الله فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا)(٥٤) وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه (الحكمة) • وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت اشارة الحكمة ، أعنى اشارة العقل والشرع • وأما قوة العدل فهى ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع (الحكمة) فالعقل مثاله الناصح المشير ، وقوة العدل هى القدرة ومثالها مثل المنفذ الممضى لاشارة العقل والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة •

ويرى أستاذنا الدكتور محمد البهى رحمه الله أن الغزالى هنا فى غاية اللباقة وحسن العرض والتصوير جمع بين تحديد أرسطو وأستاذه أفلاطون للفضيلة ، فمأثور عن أرسطو أنه يحددها بالوسط بين طرفين مذمومين ، ومشهور عن أفلاطون أنه يحددها بالعدالة أو الاعتدال بين قوى النفس الثلاث ـ لا الأربع كما ذكر الغزالى هنا ـ قوة الغضب ـ وقوة الشهوة ـ وقوة الحكمة ـ أما قوة العدل التى زادها الغزالى هنا ـ فلم تعرف لأفلاطون الا على انها التوازن بين هذه القوى الثلاث وليست قوة مقابلة لها أو لاحداها • والتوازن هذا هو الفضيلة • والتوازن لا يتم عنده الا اذا كانت الحكمة مسيطرة على القوتين الأخريين قوة الغضب والشهوة •

---

(٥٤) سورة البقره الآية ٢٦٩ •

لباقة الغزالى هنا فى التصوير وسهولته ، وضرب المثل لتوضيحه ومحاولته أن يعد العدل قوة رابعة النفس ، زيادة عما عرفه لافلاطون(٥٥) .

أما السبيل الى تحصيل الفضيلة وبلوغها فى سلوك الانسان كما يراه الغزالى فهو رياضة النفس مع العبادة ، فليس العبادة وحدها بكافية بل لابد معها من الرياضة النفسية حتى يكون أداء العبادة مع رغبة ومحبة لا مع استثقال وكراهية . وليست الرياضة أيضا وحدها بكافية ، بل لابد معها من العبادة ، لأن المقصود بالعبادة التأثير على القلب . وبدون العبادة لا تؤثر الرياضة على القلب فالرياضة والمجاهدة مع العبادة معا ينشأ عنهما رقة القلب وصفاؤه مع يسر ورغبة فى اتيان العمل الفاضل .

ونلاحظ هنا ان الغزالى أمسك بطرف من الدين وطرف آخر من العقل . ربط العبادات فى صورتها الاسلامية بمنهج تكوين العادة فى الانسان وهو ما سماه الرياضة النفسية والمجاهدة الروحية ، وأولى مراحل تكوين العادة فى منهج تكوينها ادراك العقل لما يطلب أن يكون عادة للانسان وحمل النفس بالارادة على الاتيان به ثم بعد تكراره يصبح عادة ويستغنى عندئذ عن الادراك والارادة . وهنا ربط بين الدين والعقل كما أوضح ان كلا منهما يتوقف عليه الطريق السليم لتحصيل الفضيلة .

وباختصار شديد أود أن أشير الى أن الغزالى رد على من زعموا ان الأخلاق لا يتصور تغييرها معتمدين فى حجتهم على أن الخلق هو

---

(٥٥) الغزالى فلسفته الاخلاقية والصوفية د . محمد البهى ص ١٢/١٣ ط مكتبة وهبة القاهرة .

صورة الباطن ، كما ان الخلق صورة الظاهر • فالخلقة الظاهرة لا يقدر الانسان على تغييرها ، فالقصير لا يقدر آن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته • ويرون فى حجة ثانية ان حسن الخلق يمنى قمع الشهوة والغضب وقمع الشهوات يعد أمرا مستحيلا فاذن تغيير الأخلاق يعد أيضا أمرا مستحيلا بحيث ان من يحاول تغيير آخلاقه ، فانه يضيع زمانه بدون فائدة •

يقول الغزالى ردا على ذلك : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله ﷺ (حسنوا أخلاقكم) ••• وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الانس والكلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية ، والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق •

وغاية العمل الأخلاقى عنده نجده فى كتابه الاحياء يقول فيه وغاية هذه الأخلاق ان ينقطع عن النفس حب الدنيا ، ويرسخ فيها حب الله ، فلا يكون شىء آحب اليه من لقاء الله عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله الا على الوجه الذى يوصله اليه • وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملها الا على الوجه الذى يوصله الى الله تعالى، وذلك بان يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به مستلذا له(٥٦) •

ونلاحظ هنا ان المتعة النفسية والتلذذ الروحى حلقة أخيرة فى غاية العمل الخلقى عند الغزالى كما أنه لم يغمط شأن الفكر الافلاطونى

---

(٥٦) الاحياء الغزالى •

والأرسطى فى دعائم المذهب الخلقى عنده وهو قائم الآن على الفضيلة والوسيلة والغاية .

والغزالى مهما لمح الباحث فى مذهبه فى الأخلاق من آراء فلسفية كانت أو صوفية نجد أنه طبعها بطابعه الخاص وفرض على من جاء يبحث بعده نفوذا لم ينل منه الزمن ، فهو الذى يقول لمن أراد تحصيل الجود ان يتكلف البذل ويواظب عليه حتى يصير له عادة وخلقا راسخا، وان من يراد علاج المريد وتوجيهه الى الخير عليه التعرف على أخلاقه فاذا تم له هذا عالجه بما يناسبه من أنواع الرياضيات .

وعليه يستطيع الدارس تلمس قوته واصراره على الاستمرار لثباته وثقته فهو الذى تناول الفضيلة وشرحها شرحا وافيا أكمل به شرح أرسطو وفوق كل ذلك واءم بينها وبين وسطية الاسلام وجعل منها صورة مشرفة لتطبيق الفكرة الاسلامية عن السلوك الأخلاقى القويم وصراط الله المستقيم .

٧ ـ ابن باجـــة :

فلسفته الخلقية نجدها واضحة السمة والمعالم فى رسالته تدبير المتوحد والتى يدعو فيها الى ايجاد خير الطرق التى تربى الانسان المتوحد وتجعله ينمو ويترعرع ويتهذب ويصل الى أعلى درجات الكمال الروحانى وحده ، بعيدا عن المجتمعات الفاسدة من غير ما حاجة الى معلم أو مرب أو مرشد سوى تلك المبادىء المدبرة التى تجعله يعيش على الفطرة ولا يحتاج فيها الى قاض أو طبيب ، وهى عندى كحياة النبات وسط الهواء الطلق بعيدا عن أى عناية بستانية ، وكأن ابن باجه هنا يدعو الى قانون الألفة والمحبة فى تقرير العلاقات فيما بين الناس لأنهم جميعا أحباب فى الله يجدون راحتهم الكبرى فى الاتحاد بالعقل.

الذى هو مصدر المعارف السامية التى تسمو بالانسان من أفعاله البهيمية الشاذة .

« ان غاية المتوحد النهائية هى فى ادراك هذه المعقولات والأفعال التى تؤدى الى هذه المعرفة ترجع كلها الى العقل والتفكير لأنه بالدراسة والتأمل يصل المرء الى هذه المعارف النظرية »(٥٧) .

ومجمل القول عن أخلاق ابن باجه أنه يجعل الغاية العظمى للانسان أن يصير عقلا خالصا ومتحدا بالعقل الفعال — وكما ان هذا هو منتهى الحكمة فانه أيضا منتهى السعادة فهو يرى ان الاتصال بالعقل الفعال انما يهىء السعادة للمرء كما يحقق الحكمة له .

أما عن نظرته للأفعال الانسانية فتعطى صورة هى مزيج من الواجبية والكمالية ، خاصة وانه يذكر أن من الأفعال ما هو درجات تبعا للبواعث ومنها ما يكون انسانيا ومنها من باب التشبيه والتجوز . واننى أعتبره وبسبب هذه الفكرة عاملا هاما من العوامل التى أيقظت الفلسفة النقدية فى نظرتها للواجب وان حاولت الأخيرة بسطها بصورة معاصرة أكثر مما كانت عليه فى زمانه .

ونلاحظ فى فلسفته الخلقية أنه يرى ان الانتحار عمل ضد الطبيعة الأخلاقية ، فليس من الخير أن يتخلص الانسان من الحياة ولكن عليه أن يصمد حتى ينادى الى التضحية الشريفة كالدفاع عن الدين أو الوطن . وهو بذلك يعارض وينبه الى خطورة المذاهب التى تجيز الانتحار . وما أحوج البشرية الى هذا التنبيه فى عصرنا هذا المملوء

---

(٥٧) رسالة تدبير المتوحد ترجمة الاستاذ مانك بالفرنسية عن العبرية ص ٤٠٣ من كتاب اليهودية والعبرية .

بالصراعات والفلسفات الزائفة التى حاولت أن تجعل من الانتحار عملا بطوليا بدلا من الاعتراف به كمرض يرجىء استئصاله •

وعلى كل فقد تعمق ابن باجـــة فى تصنيف الأعمـــال الخـــيرية والانسانية ممهدا بذلك الطريق لبلوغ السعادة كما بينا •

٨ ـــ ابن طفيــــــل :

لا عجب اذا رأيناه يفهم السعادة فهم سلفه من الفلاسفة الذين يرونها في تخليص النفس من المـــادة وأدرانها والوصول لله تعـــالى حيث ادراك الحقائق العليا والتى لا نعرف عنها الا بعض أمثالها • وابن طفيل هنا يرسم لذلك الطريق خطين ينحصر فيهما تماما كأمرين دائمين هما النظر والتفكير ، والعمل والتحلى بالفضيلة ، عـــلى أن فيلسوفنا يرى ان الأعمال التى يجب على الفـــرد أن يفعلها تتجـــه نحـــو ثلاثة أغـــــراض هى :

أما عمل يتشبه به بالحيوان ، وأما عمـــل يتشـــبه به بالاجسام السماوية وأما عمل يتشبه به بالموجود واجب الوجود(٥٨) •

ولكنه يرى ان التشبيه الثالث به تحصـــل السعادة العظمى وهى دوام المشاهدة لله تعالى ، وقـــد أعتبر ان التشبيهين الأولين وسيلتان له فيجب أن يكون حظه منهما بقدر الضرورة ، والا كانا من عـــوائق السعادة لا من وسائلها •

على ان الدارس لاخلاقية ابن طفيل يستطيع ادراك المدى الخلقى الذى بلغته فلسفته ، فهى تسيل رقة ورحمة وتفيض خـــيرا ، وتسعى الى آفاق خلقية وذرى بعيدة تلمس بنزعتها هامة السماء •

---

(٥٨) قصة حى بنى يقظـــان ص ١٠١ – ١٠٤ •

٩ ـ ابن رشـــــد :

اتضح لنا من دراستنا للأخلاق عند ابن رشد أنه قد تأثر بموقف الفارابى الأخلاقى هذا بالاضافة الى أنه استحدث آراءا جديدة خاصة به فى مجـال الدراسات الأخـلاقية تميز بهـا عن الذين سـبقوه من الأخلاقيين ، حيث أنه يعود بأبحاثه الأخلاقية الى الشرع • فيضع الشريعة كمعيار للفعل الأخلاقى وللسلوك على وجه العموم ، فكـأن معيار التقييم الأخلاقى عنده هو الشريعة الاسلامية ولم يقـل بهـذا أحد فلاسفة الاسلام قبله •

ولمـا كان موقف ابن رشد الأسـاسى هو محـاولة التوفيق بين العقل والنقل بين الحكمة والشريعة ، فانه جعل الشريعـة سلما يرقى به الى الحكمة أى الحقيقة • ويرى ان التسليم بغير هـذا الموقف ـ أى بان الأخلاق ترتبط بمعايير الشريعة ، انما يعد من قبيل الجهل أو الطيش أو الانحراف ذلك ان ترسم خطى الشريعة يؤدى الى تحقيـق السعادة والأمر الذى لا شك فيه ان السعادة هى غاية كل فرد•فمعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروى والعمل الحق هو الامتثال للأفعال التى تتحقق بها السعادة فى الدنيا والآخرة •

ويرى ابن رشد ان الله سبحانه وتعالى وهو الخير بالذات يقضى بان يشيع الخير دائما بين الناس • ولذلك قضى ربك ان يظلل الخـير حياة الناس ومجتمعاتهم • وهذا الخير امر حتمى وهو قانون سـائد ، ولكن الشر استثناء من هذا القانون وليس من عند الله ولكنه من أنفسنا ومن غرائزنا الشريرة التى تنساق وراء جهلنا لحقيقة الخير الصـادر عن الله •

ومع هذا فان ابن رشد لم يدخر وسعا فى احاطة حـرية الفـرد

وارادته بسياج قوى متين لا يمكن معه التضييق على هذه الحرية أو الحد منها أو الضغط على ارادة الفرد بأى صورة ما وذلك حتى يستقيم

واضح مما تقدم أن ابن رشد عنى كل العناية بموضوع الأخلاق التى نشأت عنده من عوامل عدة وظروف مختلفة • بقدر ما هى متأثرة ببيئته ومفكرى الاسلام المحيطين به والذين سبقوه وعلى رأسهم الفارابى كما بينا الا أننا نلاحظ أنها تخضع لنظرية الخير الاسمى الافلاطونية مع اضافات أرسطيه تتعلق بنظرية السعادة كما هى فى كتاب الأخلاق النيقوماخية •

خلاصة القول ان ابن رشد قدر فعلا مشكلة الحرية وادرك صعابها وما أثير حولها من نقاط وحاول ان يقدم الحل الخلقى الناجح فى كل نقطة أثيرت مستعينا بالقرآن الكريم مؤكدا أن الأخلاق الاسلامية هى الأساس الذى ينبغى أن تشيد عليه الانسانية جمعاء صرح حياتها لتنال الرضا والحب والسعادة فى الدار الآخرة لانها هى الخير الابقى تسمو على الزمان والمكان فيتوارثها الخلف والسلف فتصبح بذلك خالدة وملكا للانسانية كافة •

نستطيع أن نقرر ان الأخلاق الاسلامية حلقة خالدة فى سلسلة الفكر الانسانى أخذت وأعطت وأثرت فهى قائمة على مبادىء مستمدة من الوحى الصادق العليم وهذا فى اعتقادى أكبر دليل على اكتمال معانيها واتسام مواقفها بالواقعية والكمال •

الفصل السادس

المذاهب الأخلاقية

- مذهب السعادة الشخصية .
- مذهب المنفعة (السعادة العامة) .
- المذهب الرواقى .
- مذهب النشوء والارتقاء .
- مذهب الواجب (كانط) .

المذاهـــب الأخـــلاقية

مذهـــب الســعادة الشخصية

هو المذهب القائل : ان الانسان ينبغى أن يطلب أكبر لذة لشخصه ويجب أن يوجه أعماله للحصول عليها .

فعلى هذا المذهب اذا تردد انسان بين عملين أو تردد فى عمل أيعمله أم يتركه فليحسب ما فيـــه من اللذائذ والآلام لشخصه ويوازن بينهما فما رجحت لذائذه فخير ، وما رجحت آلامه فشر ، وما تساوت فيه اللذائذ والآلام كان فيه مخيرا .

وقال أصحاب هذا المذهب : ان كل انسان يجب ان يبحث وراء لذائذه هو وسعادته هو ويعمل ما يوصله الى ذلك ،والعمل الذى يوصل الى تلك الغاية أو يقربه منها يكون خيرا(١) .

ومن أكبر زعماء هذا المذهب (أبيقور(٢) ٣٤١ — ٢٧٠ ق.م) اذ يضع مذهبه على أساس كون اللذة هى مبدأ السعادة وغايتها قال: نحن نجعل من اللذة مبدأ السعادة وغايتها انه أول خـــير نعرفة خير مغروز فى طبيعتنا وهو مبدأ كل قراراتنا وشهواتنا وكراهيتنا واليــه نسعى دون انقطاع وفى كل شىء العاطفة هى القاعدة التى تستخدم فى قيـــاس الخـــير(٣) .

---

(١) أحمد أمين كتـــاب الاخـلاق ص ٧٥ .

(٢) فيلسوف يونانى أسس مدرسته فى سنة ٣٠٦ ق.م واستمرت اكثر من ستة قرون وقد قسم تعاليمه الى منطق وطبيعيات وأخلاق والذى يهمنـــا أبحاثه فى الاخـــلاق .

(٣) رسالة ابيقور الى ما نقيه ـ وردت فى كتاب ديوجانس ـ المقالة العاشرة بند ١٢٨ ترجمة زلاوت ج ٢ ص ٢٩٩ . (حياه وآراء الفلاســفة المشهورين ـ ديوجانس اللائرسى) باريس ١٩٣٣م .

وتتلخص آراؤه فيما يلى :

١ ــ يرى أبيقور ان السعادة أو اللذة هى غاية الانسان ولا خير فى الحياة الا اللذة ولا شر الا الألم ، وليست الأخلاقية الا العمل لتحصيل السعادة وليس للفضيلة قيمة ذاتية انما قيمتها فى اللذة التى تصحبها هذا وحده وهو مبدأ أبيقور الأخلاقى وكل ما ذكر بعد ذلك فى الأخلاق شرح للذة التى يعنيها •

وهو ليس يعنى باللذة اللذة الحاضرة كما يقول القورينائيون(٤) انما يجب عنده أن نلقى بنظرة على الحياة كلها ونطالب تحصيل لذة الحياة ومن ثم يجب ان نمسك بزمام شهواتنا فنرفض اللذة اذا استتبعت ألما أكبر منها ونتحمل الألم اذا استتبع لذة أكبر منه •

٢ ــ يرى أبيقور ان اللذائذ العقلية والروحية أهم من اللذائذ البدنية لأن البدن يشعر باللذة والألم مدة بقائها فقط وليس للجسم نفسه ذكر للذة ماضيه ولا توقع للذاة مستقبلية • أما العقل فانه يذكر ويتوقع ومن ثم كانت لذائذه أبقى وأطول فهو يشارك الجسم فى تلذذه وقت اللذة ويزيد عليه بلذة الذكرى والتوقع ويرى أبيقور ان خير لذة تطلب هى لذة طمأنينة العقل وراحة النفس • ويعد الأبيقوريون من خير اللذائذ العقلية (الصداقة) ومن ثم لم تكن مدرستهم مجرد مجموعة تدرس الفلسفة بل كانت فوق ذلك جمعية أصدقاء •

٣ ــ يقدر الأبيقوريون اللذائذ السلبية أكثر مما يقدرون اللذائذ الايجابية • ويعنون باللذة السلبية الخلو من الألم ، لهذا يجعلون أكبر

---

(٤) ذهب ارسطيفوس القورينائى حوالى ٤٣٥ ــ ٣٦٦ ق•م أنه يعرض للنفس حالتان لذه وألم فاللذه حركة ملائمة للطبيعة والالم منافره للطبيعة وتقع اللذه فى محيط الاطار الجسدى ولايعترفون بوقوعها فى غيره

جمهم اللذائذ السلبية كطمأنينة العقل والهدوء والبعد عما يسبب القلق والاضطراب •

٤ ـ يذهب الأبيقوريون الى أن السعادة لا تتوقف على كثرة الحاجات والرغبات (وارورائها) بل ان كثرة الحاجات والرغبات تجعل تحقيق السعادة عسيرا ، وتعقد الحياة وتربكها من غير ان تزيد فى سعادتها ، والواجب ان نقلل حاجاتنا ومطالبنا ما استطعنا • وكان أبيقور نفسه يعيش عيشة بسيطة ويدعو اتباعه أن يعيشوا عيشته ويرى أن البساطة والاعتدال والعفة خير وسائل السعادة • وأكثر مطالب الناس (الشهرة) وهى ليست ضرورية ولا نافعة(٥) •

وعلى هذا المذهب الفضائل تسبب للعامل لذة كبرى فمثلا العفة فضيلة والدعارة رذيلة ولو دقق فى حساب ما يجده العفيف من اللذة فى رضائه عن نفسه وبعده عن الآلام التى تنتجها الدعارة واحترام الناس وثقتهم به لوجد أنه يرجح ما يجده الداعر من لذة وقتية يتبعها ألم النفس وفقد الثقة ، وتعريض الصحة والمال والشرف للضياع وهكذا القول فى الصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، وقد قسم أبيقور الرغبات الى ثلاثة أطراف :

١ ـ رغبات طبيعية وضرورية : وهى التى يسد بها حاجيات وجود الكائن من الغذاء والشراب •

٢ ـ رغبات طبيعية لكنها غير ضرورية : كالاستمتاع ببعض الألوان أو المأكول أو المشروب والملبوس • ولكن الأخذ بهذه الأنواع

---

(٥) W . T siace . Acitircal Histor of Greek Philosophy .

على خط معتدل بحيث لا يدخل فى جانب الأفراط ولا فى جانب التفريط .

٣ ــ رغبات ليست طبيعية ولا ضرورية ، كدافع التفاخر لعلو المقام وطلب الرفعة فى السلطة والجاه . والمطلوب من الشخص الابتعاد عن مثل هذه الرغبة فانها مما تقلق الانسان وتجعله فى متاهات واحلام .

وعلى كل فقد خلط بعض الناس ففهموا ان مذهب أبيقور يدعوا الى الانهماك فى اللذات الجسمية والجرىء وراء الشهوات حتى أطلقوا كلمة (أبيقورى) على الداعر الفاجر المنهمك فى تحصيل اللذات الجسمية مع ان تعاليمه بعيده عن ذلك . وقد ندد هو نفسه فى بعض كتبه بمن يفهم من قوله هذا الفهم السقيم .

ومن أكبر زعماء هذا المذهب فى العصور الحديثة الفيلسوف (توماس هوبز ــ ١٥٨٨م ــ ١٦٧٩م) فقد أرجع هو واتباعه كل عواطف الخير فى الانسان الى حبه الى نفسه وطلبه لذته هو ، وقالوا: ينبغى ألا نحكم على عمل بأنه خير الا بمقدار ما فيه من اللذة للعامل ولا شر الا بمقدار ما فيه من الألم .

وأود أن اشير الى أن هذا المذهب يقود المجتمعات الانسانية الى منعطف سحيق اذ يجعل الفرد انانيا لا ينظر فى أعماله الا لنفسه، أما نداءات الوطنية والانسانية والتضحية ونحوها تعتبر ضربا من السخافات ولذلك غابت الفضيلة لأنها فى نظر هذا المجتمع عبارة عن البحث وراء اللذات .

وجاءت الاديان من مسيحية واسلامية فأوجبت التضحية عند الحاجة وحببت الى الناس الايثار والاحسان . فكان فى انتشار هذه

التعاليم الدينية ما عاف هـذا المذهـب وتعثرت خطـاه ، لأن الشرف والتضـحية والايثار لا تتفق مع الانانية وحب النفس • هـذا وقد اعترض على هذا المذهب بجملة اعتراضات(٦) •

١ ـ اذا كانت اللذة الشخصية هى المقياس فمن الصعب ـ أن لم يكن من المستحيل ـ عد الاحسان فضيلة مع اجمـاع الناس على عـده كـذلك •

٢ ـ لا معنى لفضيلة ولا رذيلة ولا خير ولا شر الا اذا روعيت علاقة الناس بعضهم ببعض ، وبعبارة أخرى الا اذا عد الفرد عضـوا فى جمعية ، وهذه العضوية تجعل له حقوقا وعليه واجبـات ، وهـذه الحقوق والواجبات ملحوظ فيها مصـلحة الناس ومضرتهم أو لذتهم والمهم وهذا ينافى ان تكون اللذة الشخصية مقياسا •

٣ ـ هذا المذهب يستلزم احتقار من ضـحوا بلذتهم وحيـاتهم لمنفعة الناس وتكريم من ضحى بسعادة الناس وحياتهم لمصلحته هـو ولا قـائل بهـذا(٧) •

مذهب المنفعة (السعادة العـامة)

بنتام(٨) (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢م) :

يعتبر بنتام الرائد الأول للنفعيين فى القرن التاسع عشر • وقد

---

(٦) كتـاب الاخـلاق ص ٧٨ •

(٧) المصـدر السـابق ص ٧٨ •

(٨) بنتـام Bentham عالم انجليزى اشتهر ببحثه فى الاخلاق والقانون وهو من أكبر دعاة مذهب المنفعة وربما عد مؤسسه وهو القائل بان مقياس الخير والشر : أكبر لذة لاكبر عدد • وقـد آلف فى أصول القوانين كتابه الشهير (أصول القوانين) وطبقه على مذهب المنفعة وترجمة المرحوم أحمـد فتحى زغلـول •

ذكر جمل فلسفته الأخلاقية فى كتابه (مقدمة فى أصول الأخلاق والتشريع) اذ يرى أن الانسان خلق خاضعا لسيدين قاهرين الألم واللذة ، فهما وحدهما اللذان يدلان على ما ينبغى أن نفعل كما أنهما يحددان ما سوف نفعل فهما مصدرا الصواب والخطأ من ناحية وسلسلة الأسباب والنتائج من ناحية أخرى ، وهما اللذان يتحكمان فى كل ما نقول وفى كل ما نفكر وكل جهد نبذله كى نتخلص من نيرهما جهدا ضائع وأن مبدأ المنفعة ليعترف بهذا الخضوع لهما فهما الأصل وذلك كى نحقق السعادة على يد المنطق والقانون ولهذا كان مبدأ المنفعة أساس عملنا الراهن •

وأضاف « بنتام » فى حديثه قائلا والمقصود بمبدأ المنفعة ذلك المبدأ الذى يستحسن أو يستهجن كل فعل مهما كان نوعه بمقتضى ماله من نزوع نحو زيادة سعادة الطرف الذى يعنيه الأمر أو الاقلال منها أو بعبارة أخرى بنفس المعنى بمقتضى ما ينمى تلك السعادة أو يناهضها وأنا أقول كل فعل مهما كان نوعه ولا أعنى بهذا أى فعل خاص بفرد معين بل أعنى أيضا أى اجراء تتخذه الحكومة •

ويأتى بنتام الى تعريف المنفعة بقوله : انها تلك الخاصة التى توجد فى أى موضوع بحيث ينزع الى خلق فائدة أو ميزة أو لذة أو خير أو سعادة وهذه كلها فى حالتنا الراهنة شىء واحد أو بعبارة عكسية لها نفس المعنى أى موضوع يمنع حدوث اساءة أو ألم أو شر أو شقاء للطرف الذى يعنيه الأمر ، فاذا كان ذلك الطرف المجتمع بوجه عام فالمقصود اذن سعادة ذلك المجتمع أما اذا كان فردا معينا فالمقصود اذا سعادة ذلك الفرد(٩) •

---

(٩) لمزيد من التفصيل راجع النفعيون ـ وليم ريفدسون ترجمة محمد ابراهيم ذكى ص ٩ والاخلاق النظرية ص ٢٤٨ وعلم الاخلاق النظرية والتطبيق ص ١٥٠ •

ويبــدو من خلال تعبير بنتام أنه قد عمم المنفعـــة الى الأخلاق والتشريع ولذا نشاهد فى عرضه لمبدأ المنفعة أنه يقول : بأنها شـــاملة لأكبر قدر من الســـعادة أو كما عبر عنه فى أول بحثـــه أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس يقصـــد بذلك خير المجتمع أو رفاهيته لا بالنظر الى رفاهية الفرد خاصة •

ويكون عنصر السعادة لدى بنتام هو وجود اللذة وانعدام الألم ووجود فائض من اللذة على الألم • ويقول ان المصادر أربعة :

١ ـ المصدر الطبيعى ٢ ـ السياسى ٣ ـ الخلقى ٤ ـ الدينى •

وكل واحد منها جزاء طالمـــا أن اللذائذ والآلام الخاصة اها بكل منهـــا هى مصـــدر القوة الملزمة فى أى قانون أو أية قاعدة من قواعد السلوك فالآلام أو اللذائذ حين تأتى لنا كأمر من طبيعة الأشياء دون أى تدخل مقصود من الارادة يقـــال انها تنبعث عن الجـــزاء الطبيعى فالاعتدال مثلا يحفظ الصـــحة ويؤدى الى اللذة • أما المرض فمرجعه بالطبع الى عدم الاعتدال والنتيجة هى الألم أما حين تأتى عن طريق أولى الأمر فى المجتمع أو حين يقوم بتنفيذها أشخاص أو شخص له صلاحية كالقاضى مثلا فهى تنبعث عن الجزاء الســـياسى أو ما يعرفه عادة بقانون البلاد ، والمقصود بالجزاء الخلقى ضغط الرأى العام علينا أو ما ينبغى أن نطلق عليه الجزاء العمومى ، أما الجزاء الدينى فيرجع الى اعتقادنا فى الله وفى صلتنا به جل شأنه من حيث حياتنا الراهنة والمستقبلة وهنا يقع العبء على رجل الأخلاق وعلى المشرع سواء بسواء فعليهما أن يجعلا هذه الجزاءات تؤدى وظيفتها على أحسن الوجوه فى سبيل تحقيق السعادة الانســـانية الفردية أو الجماعية فكلاهما يدفعه دافع واحد وان كان لكل منهما طريقته الخاصة ، ولكن اللذائذ والآلام لا تختلف من حيث مصادرها وانما تختلف أيضا من حيث قيمتها أو قدرها

ويكون تقدير القيمة بحسب الفرد أن قيمة اللذة أو الألم تتوقف على أمور ستة : ١ ـ الحدة ٢ ـ المدة ٣ ـ الثبوت ٤ ـ عدم الثبوت ٥ ـ القرب ٦ ـ أو البعد .

ويقول اذا أردنا بالاضافة الى تقدير قيمة اللذة أو الألم كل على حدة أن نقدر نزوع الفعل الذى ترتبت عليه هذه اللذة أو نشأ عنه ذلك الألم فعلينا أن ننظر أيضا فى أمرين أولهما الخصوبة أو النماء (أى احتمال أن يعقب الفعل احساسات من نفس النوع ، فاللذة تعقبها لذائذ والألم تعقبه آلام) وثانيهما النقاء (أى احتمال ألا يعقب الفعل احساسات من نوع عكسى فاللذة تعقبها آلام أو الألم يعقبه لذائذ) .

والذى يختص بجماعة من الأفراد أن يضاف الى تلك الشروط الستة شرط سابع وهو نطاق الألم أو اللذة أعنى عدد الأشخاص الذين يتأثرون .

ويأتى (بنتام) الى تقسيم اللذة والألم فيقول ان اللذة البسيطة أربعة عشر أما الآلام فاثنا عشر . واللذائذ البسيطة هى لذائذ الحس والثروة والمهارة والصداقة وحسن السيرة والقوة والتقوى والمحبة والشماتة أو التشفى والذاكرة والتخيل والتوقع والتأليف الفكرى والراحة .

أما الآلام البسيطة فهى آلام الحواس والحرمان والارتهان والعداء وسوء السيرة والتقوى والمحبة والشماتة والذاكرة والتخيل والتوقع وتداعى المعانى(١٠) .

وقد جعل « بنتام » جدولا لمنابع العمل لمعرفة أنواع اللذائذ والآلام المتعددة التى تتأثر بها طبيعة الانسان وبيان أنواع الرغبات

---

(١٠) نفس المصدر السابق ص ٣٤ .

والبواعث واستعراض الأسماء المختلفة من محايدة وتقريظية وانتقادية

وبالجملة ان خلاصة رآى بنتام يعرف المنفعة كل لذة أو كل سبب فى ايجاد لذة .

وان مصادر المنفعة تقوم على الفردية ، وهو عبارة عن أن الفرد هو الحاكم على لذته وبعين ذلك تكون اللذة متساوية عند الجميع .

ويرى أن كيان علم الأخلاق قائم على حساب اللذات وان لذة ما تفوق على لذة أخرى من حيث الأشدية أو الدوام أو الآكد أو الأقرب أو الاخصب أو الاصفى أو الأوسع نطاقا فالشدة والدوام خاصيتان ذاتيتان فى اللذة والأكدية والأقربية ، خاصيتان تتعلقان باحتمال الانطباع وعلاقته بالحاضر وأما الخصب والصفاء فيكونان الى انطباع الشعور بنحو الاستقلال عن الانطباعات الأخرى بحيث ننظر الى الخصب بحسب ذاته لا بالنظر الى أنه يجد لذة أخرى وأما الأوسع نطاقا فتكون بملاحظة اعتبار الغير فى تقدير اللذة .

ويقول لا تتصورون أن الناس سيكلفون أنفسهم مشقة تحريك خنصرهم فى سبيل خدمتك ان لم تكن لديهم مصلحة فى ذلك فهذا أمر لم يحدث أبدا ولن يحدث طالما بقيت الطبيعة الانسانية كما هى لكن الناس سيرغبون فى خدمتك ان وجدوا فى ذلك مصلحة لهم والفرص كثيرة التى فيها ينفعونك وينفعون أنفسهم فى نفس الوقت وفى هذه الخدمات المتبادلة تقوم الفضيلة .

ويقول أيضا أن أخس الناس وأفضلهم لهم دوافع متشابهة فكلا الفريقين يسعى لزيادة مجموع سعادته .

وان السعادة امتلاك اللذة مع الخلو من الألم وهى تتناسب مع مجموع اللذة المذوقة والآلام المتجنبة ، ما الفضيلة انها ما يسهم فى

مزيد من السعادة وما يكثر من اللذات ويقلل من الآلام،والرذيلة بعكس ذلك هى ما يقلل من السعادة ويسهم فى الشقاء •

ولا يرتئى القاء كلمة الواجب فى قاموس الأخلاق •

أما عن رأى جون استيورت مل(١١) (١٨٠٦ — ١٨٧٣م) حول مذهب المنفعة • قال (مل) ان الرجل الذى يطلب اللذائذ الوضيعة يجد فرصا كثيرة سانحة لمائها ، أما الرجل الراقى فانه يشعر بأن كلمايتوقعه فى هذه الحياة ناقص لا يفى بغرضه ولكنه يعتاد تحمل هـذا النقص مادام محتملا ولا يحسد من لا يشعر بالنقص لأن من لم يشعر لم يدرك الخير الأكبر • ولأن يكون المرء انسانا شقيا أفضل من أن يكون خنزيرا راضيا ، وأن يكون مثل سقراط ساخطا خير من أن يكون أبله سعيدا • واذا كان الأبله والخنزير مختلفين فى الرأى فذلك لأنهما لا يعرفان غير وجه واحد من المسألة(١٢) •

وعن تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة قال : ان السعادة هى المعيار المنفعى لما هو خير فى السلوك ، ليست السـعادة الخاصة بالفاعل بل سعادة كل الناس • وبين السعادة الخاصة بالفرد وسـعادة الآخرين ، ويقتضى مذهب المنفعة أن يكون الفرد نزيهـا محـايدا مثل شاهد نزيه محسن وفى القاعدة الذهبية التى وضعها يسوع الناصرى (المسيح) نجد الروح الكاملة لأخلاق المنفعة ، فان تعامل الناس بما

---

(١١) جون استـيورت مل فيلسوف انجليـزى كتب فى المنطق والاقتصاد السياسى والسياسة وكتب رسالة فى الحرية ترجمها الاستاذ طه السباعى ورسالة فى مذهب المنفعة سنة ١٨٦٣م وهو يعد من أكبر من مؤسسى المذهب •

(١٢) مذهب المنفعـة ص ١٨ •

تحب أن يعاملوك به وأن تحب غيرك كما تحب نفسك ـ هاتان هما قاعدتا الكمال المثالى فى الأخلاق المنفعية •

ويقول بيد أن الأخلاق المنفعية ترفض الاقرار بأن للتضحية قيمة ذاتية ، ان التضحية التى لا تزيد أو لا تتجه الى زيادة المجموع الكلى للسعادة تعد بلا فائدة ، والتضحية الوحيدة المقبولة هى الاخلاص لسعادة الآخرين وللانسان أو الاقرار فى الحدود التى تفرضها المصالح الكلية للانسانية(١٣) •

وينظر (مل) الى المنفعة على أنها المرجع الأخير فى المسائل الأخلاقية كلها ولكنها يجب أن تكون منفعة بأوسع المعانى تبتنى على المصالح الدائمة للانسان بوصفه كائنا تقدميا • ولا ينكر (مل) وجود البديهيات الخلقية الا أنه يقول : ان ما له قيمة فى الأخلاق انما أساسه التجربة لأنها هى التى تثبت جذوره فى الأرض • كما أنه يرجع الوجدانيات الفطرية الى الاكتساب الا أنها ليست شاذة عن طبيعة الانسان وأن التجربة تستمد صفتها آخر المطاف من اللذائذ التى هى المقياس للقيمة الأخلاقية •

ويذهب (مل) الى أن على الفرد أن يرغب فى السعادة العامة ويعمل على تنميتها • وما من رد يمكن أن ندلى به عن سبب كون السعادة أمرا مرغوبا فيه ، الا أن كل شخص يرغب فى سعادته الذاتية على قدر ما يعتقد فى أنها أمر ممكن التحقق وهذه حقيقة مسلم بها • اذا فلدينا الاثبات كله الذى تسمح به ظروف الحال • وليس هذا فحسب بل كل ما يمكن أن نطلبه هو السعادة لأن السعادة خير وان سعادة كل شخص

---

(١٣) مذهب المنفعة ص ١٣ ط ٨ •

هو خير لذلك الشخص ، فالسعادة العامة اذا هى خير لمجموع الأشخاص كلهم .

وتحدث (مل) فى يونيو عام ١٦٦٨م قال : حين قلت ان السعادة العامة هى خير لمجموع الأشخاص جميعا لم أكن أقصد ان سعادة كل كائن بشرى هى خير لكل كائن بشرى آخر برغم أننى أحسب أنها كذلك لو كان المجتمع والتربية فى حالة طيبة انما كنت أعنى من هذه الجملة المعينة أو أدل على أنه اذا كانت سعادة (أ) خير وسعادة (ب) خير ، وسعادة (جـ) خير وجب أن يكون مجموع هذه الخيرات كلها خير(١٤) .

وقد اعترض على هذا المذهب باعتراضات عدة منها :

١ ـ يقرر هذا المذهب ان الحكم على عمل الخيرية أو الشرية يقتضى حساب كل ما ينشأ عن العمل من لذة وألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من العمل . واذا كان الأمر كذلك فمن الصعب الوقوف على نتائج العمل وحسابها فقد نرى عملا ينفع أمتنا ويضر بالآخرين وقد ينفع معاصرينا ويضر الأجيال المقبلة . والأجيال المستقبلة كثيرة العدد فيصعب الحساب ويدق النظر . فمثلا هل تستدين الحكومة اذ خيف أن يكون الدين حملا ثقيلا على الخلف .

٢ ـ ليس مقياس السعادة العامة مقياسا ثابتا محدودا ، وهذا يجعل الحكم بأن العمل خير أو شر مجالا للخلاف الكثير ذلك بأن مدار الحكم هو اللذة والألم ، وتقدير ما فى العمل من اللذة والألم يختلفة

---

(١٤) لمزيد من التفصيل راجع النتميون مصدر سابق ص ٩٤ ـ ٩٥ و ١٣١ .

باختلاف الأشخاص • فاللذة لا تقع تحت ضابطة كلية فقد يرى أحد في عمل لذة كبيرة ويرى آخر فيه لذة أكبر أو أقل فيترتب على ذلك اختلافهم في الحكم على الشيء بالخيرية أو الشرية • فمثلا قد يستمتع أحد بلذة استمتاعا لا يستمتعه الآخر من الشيء نفسه ، كصوت الموسيقى يطرب منه سامع طربا يخرجه عن عقله حتى يضحكه أو يبكيه بينما تجد الآخر بجانبه لا يأبه لهذا الصوت ولا ينفعل منه أي انفعال فكيف تتخذ اللذة بعد مقياسا تقاس به الأعمال •

٣ — ان هذا المذهب يجعل الناس باردين يقصرون نظرهم على نتائج العمل وما فيه من لذة وألم ولا ينظرون الى صفات العامل ولا جمال الخلق الذي صدر عنه العمل •

٤ — لقد حط هذا المذهب من شرف الانسان ورسالته وذلك بقوله ان الحياة غايتها الوصول الى اللذة والفرار من الألم وهذا لا يليق بآدمية الانسان •

وقد أجيب على هذه الاعتراضات بأجوبة تبناها جون استيورت مل في رسالته المسماة مذهب المنفعة فارجع اليها لمزيد من الايضاح والتفصيل •

ورغم النقد وما قيل حول هذا المذهب الا أنه أكثر المذاهب انتشارا في العصور الحديثة وكان له الفضل في ايقاظ العقول ومطالبتها أن تكون غير متحيزة في أحكامها •

وما يعد جريمة يعاقب عليها القانون وما لا يعد انما يرجع فيه الى كمية ما في الفعل من آلام للمجموع • والعقوبات التي توضع بازاء الجريمة يجب أن يلاحظ فيها انها تأتي بلذائذ للناس أكثر مما تسببه من الآلام وهكذا •

المذهب الرواقى

الرواقيون طائفة من الفلاسفة الأقدمين ، وهم أتباع زينون الفيلسوف اليونانى (٣٤٢ — ٢٧٠ ق.م) وكان يعلم أصحابه فى رواق مزخرف فى اثينا ومن ثم سمى أصحابه بالرواقيين Stoics

وتتفق الأخلاقية الابيقورية والنفعية مع الأخلاقية الرواقية فى نقطة الطبيعة ، الا أن هناك جهة اختلاف بينهما ، اذ الابيقورية والنفعية ترى أن الميل الطبيعى فى الانسان هو الى اللذة أى أن الغاية من الحياة هى الوصول الى أكبر لذة ممكنة للعمل وانه يجب احياء الشهوة وارواؤها • الا أن الرواقية تعتقد أن الميل الطبيعى فى الانسان هو الحفاظ على كيانه وتنميته ، أى يجب ضبط النفس وقمع الشهوات هذا وقد كان زينون معاصرا لابيقور معارضا له فى تعاليمه •

ويقول « خروسيفوس » (٢٨٠ — ٢٠٩ ق.م) : ان أول خاصية للانسان ولكل حيوان هى كيانه الخاص وشعوره به لأنه من غير المعقول أن يكون الحى غريبا عن ذاته أو أن تجعله الطبيعة غريبا عن ذاته ، يبقى اذن أن نقرر أن كيانه يعزوه الى نفسه ، وهكذا فانه ينبذ ما يضره ويقبل على ما يخصه •

وكان هؤلاء الرواقيون يرون أن اللذة ليست هى الغاية للانسان ولا هى الخير دائما ، وانما الغاية نيل الفضيلة لأنها فضيلة • وطلبوا من الناس ان يكفوا عن اتباع الشهوات ، وان يمرنوا أنفسهم على تحمل الآلام فى سبيل الفضيلة وان يتوقعوا أسوأ معيشة من فقر ونفى وكراهية من الرأى العام ، ثم يعدوا أنفسهم لتحملها حتى اذا كانت لم تنزعج منها نفوسهم •

والرواقى لا يجعل أكبر همه أن يكون غنيا ولا متلذذا ، انما

اكبر همه أن يعيش حكيما(١٥) فاضلا فى أى وسط كان فى فقر أو فى غنى ، مبجلا فى قومه أو محقرا • وأن يستعمل ما حوله من الأشياء خير استعمال لأنه يطمح الى قبول الواقع الطبيعى الذى هو تعبير عن النظام الكونى ، فالحكيم اذن لا يعرف الألم ولا الأمل ولا الخوف ويملك الخير كله ولا ينقصه شىء •

ولهذا فالانسان يجب أن يمدح أو يذم لاجادته فى عمله أو عدمه، لا لمنصبه الذى يشغله أو ماله الذى يملكه • وتريد الرواقية ان تبين ان الأشياء الخارجية لا قيمة لها فى أنفسها وانما يمدح الانسان على حسن استعمالها لا على ملكها •

والغربيون الآن يطلقون « رواقى » على من اعتاد أن يقابل الأشياء بهدوء وطمأنينة ، على الرغم مما يحيط بها من خطر وآلام •

ويرى أحمد أمين ان تعاليم الرواقية قد صبت فى قالب النصرانية والاسلام • فكان لها تأثير كبير فى حياة النصارى والمسلمين فى القرون الوسطى ، فالميل الى الرهبانية والمبالغة فى الزهد والتقشف عند الصوفية لا يخلوان من أثر رواقى كبير •

ولتفصيل مذهبهم هذا أود أن أشير الى ان الرواقيين يرون أنه ليس هناك حقيقة وراء المادة وأن المسلك الحكيم والعاقل هو وحده الذى من شأنه أن يوفر انعدام القلق والأهواء فى النفس ويرون ان بين الانسان والعالم وجود علاقة •

كذلك يقولون ان المعرفة تأتى عن طريق الحواس التى هى

---

(١٥) يقول زينون : ان الحكيم غنى حتى لو كان شحاذا ، جميل حتى لو كان مشوه الخلقة نبيل حتى لو كان عبدا •

المصدر فى استخراج التصورات من دائرتها . ومن هذا المنطق يرى المذهب الرواقى ان الحياة الأخلاقية تقوم على ثلاثة أنواع هى :

١ — الحياة النظرية التى هى المعرفة .

٢ — الحياة الفاعلة التى هى تساير الضرورة .

٣ — الحياة العاقلة التى هى للتعاطف والمعاش .

ومختلف أجزاء الأخلاق دراسة الميل ودراسة الخير والشرور ودراسة الخير الاسمى ودراسة الأفعال والسلوك ، وهذه الأمور جميعا ترجع الى الشعور بالعيش باتحاد وانسجام مع الطبيعة وعند الاتحاد تنحصر السعادة ، اذ تتفق النفس مع كل ما هو حى لأن الفضيلة فى واقعها نوع من الكمال مع جميع أجزاء الكائن . وهذا يعنى بوضوح أن الخير عندهم هو ما كان موافقا للطبيعة .

بهذا العرض يتضح لنا وجهة نظر الرواقيين حول المفهوم الأخلاقى والذى يرتكز تماما حول علاقة الانسان بالطبيعة . الى حد ان يكون فيه دنيويا محضا لا أمل له فى جزاء دنيوى أو أخروى ولكن ما أوضح عذرهم اذ وضع أساس مذهبهم الرواقى فى عالم لم يكن بعد قد استشعر نسمات الأديان السماوية ولهذا كان طريقهم وعرا .

مذهب النشوء والارتقاء

دأب بعض الناس على اثارة بعض القضايا غير آبهين بما تسببه من اضطرابات اجتماعية ، واعنى تلك القضايا التى لا تأخذ بجوانب المعرفة المجمع عليها . فمثلا المفهوم العام عند الناس أن كل جنس وكل نوع من أنواع الحيوانات مستقل بذاته أى لا ينتقل الى غيره ، فالكلاب لا تنتقل الى قطط ، لأن لكل نوع آباء متميزة تتناسل ومنها فروعه .

ولكن العالم الفرنسى (لامارك ١٧٧٤ ــ ١٨٢٩م) يقــول ان البحث أداه الى أن الانواع يتحــول بعضــها الى بعض ، وأنه ليس بصحيح ما يقال من ان الأنواع متمايزة لا تتغير ، بل متغيره تنتقـل من نوع الى نوع ، بدليل ما نشاهده من تدخل أنواعها بعضها فى بعض وعدم وجود حدود مميزة لكل نوع • ويرى أيضا أن الأنواع لم تخلق كلها فى زمن واحد ، بل وجدت الحيوانات السافلة أولا ، ثم تدرجت فى الرقى وتولد بعضــها من بعض وانتقلت من أنواع الى أنواع • ويعتقد لامارك ان أهم العوامل التى أدت الى هذا التغيير شيئان هما :

١ ــ البيئة : أى ان الظروف المحيطة بالحيوان قــد لا تكــون ملائمة له فيضطر عندئذ الى تعديل نفسه على وفقها •

٢ ــ مبدأ الوراثة : ويعنى ان الصفات التى تصف بهــا الأصــل ايلائم وسطه تنتقل الى فروعــــه •

ولذلك سمى هذا المذهب (مذهب النشوء والارتقــاء) لقــوله بنشوء الحيوانات بعضــها من بعض وارتقائها من حيوان ســافل الى حيــــوان راق(١٦) •

وجاء بعده (دارون) العــالم الانجليزى (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢م) فأوضح مذهب التحول ونشر مؤلفه المسمى (أصــل الأنواع) وبنى مذهبه على قوانين يكثر دورانها على الألسنة وهى :

١ ــ قانون الانتخاب الطبيعى : ويعنى ان الطبيعة تنتخب من الموجودات ما يصلح للبقاء ، فالحيوانات مثلا تنسل عددا لا يحصى ، ولا يبقى منه الا القليل ، ولم يبق ما بقى اتفاقا ، ولكن لأنه هو الذى

---

(١٦) الاخلاق مصــدر سابق ص ٩٤ ــ ٩٥ •

قاوم الحوادث المختلفة وفواعل الطبيعة فصلح للبقاء • اذن فالقوى يبقى والضعيف يفنى • فما تفعله الطبيعة من انتخاب أصلح الموجودات لتمنحه ميزة البقاء يسمى الانتخاب الطبيعى •

٢ ــ تنازع البقاء : المخلوقات فى نزاع شديد وبين أنواعها حرب عوان اضف الى ذلك ان النوع الواحد قد يتنازل بعض أفراده مع بعض عند الضرورة أو عند الأزدحام على شىء لا يكفى لسد رغباتها جميعا كما ترى من تنازع الانسان مع الانسان وكما ترى من تنازع القطط على قطعة من اللحم وهذا التنازع الذى بين الأنواع والأفراد هو الذى يسمى تنازع البقاء •

٣ ــ بقاء الاصلح : ويعنى بعد التنازع لأجل البقاء كون الذى يبقى هو أصلح الموجودات للبقاء يسمى بقاء الأصلح •

٤ ــ قانون الوراثة : يرى داروِن أن الصفات الغريزية التى فى الأصول تنتقل فى الفروع • فالنسل المتولد من الأقوياء قوى ومن الضعفاء ضعيف وهكذا ••وهذا هو قانون الوراثة •

وقد توسع كثير من العلماء فى تطبيق هذا المذهب على كثير من الأشياء اجتماعية كانت أو علمية • وعموما يمكننا القول بان مذهب النشوء والارتقاء أثر فى الباحثين وفى طريقة البحث أثرا كبيرا حتى أضحت تدور فى خلد كل باحث بعض الأسئلة مثلا ما أصل هذا الشىء الذى ابحث عنه ؟ كيف صار الى هذه الحالة التى نشاهده عليها ؟ ثم ماذا ينتظر له من الكمال فى المستقبل(١٧) ؟

وجاء هربرت سبنسر (١٨٣٠ ــ ١٩٠٣م) وهو فيلسوف انجليزى

---

(١٧) المصدر السابق ص ٩٦ بتصرف •

أسس فلسفته على مذهب النشوء والارتقاء نادى فيهـا بضرورة رقى الأبحاث الأخلاقية والاجتماعية •

لقد ذهب سبنسر الى وجوب بناء الأخلاق على أساس بيولوجى أى علم الحياة وذلك باخضاعها الى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة ، إذ يرى هو وأصحاب هذا المذهب ان الأعمال الأخلاقية نشأت ساذجة بسيطة وأخذت فى التدرج والرقى شيئا فشيئا ، هى سـائرة نحـو « مثل أعلى » يعتبر هو الغاية • فالعمل خير كلما قرب من هذا المثـل الأعلى ، وشر كلما بعد عنه وغاية الناس فى الحياة أن يحققوا هـذا المثل أو يقتربوا منه قدر المستطاع •

ولكن العالم «هكسلى» فى محاضراته فى جامعة اكسفورد عام ١٨٩٣م رفض أن يكون علم الحياة دليلا أخلاقيا ، وأن الطبيعة ملطخة بالدماء نابا ومخلبا كما قال « تنسيون » اذ كيف نترك للطبيعة وضع أخـلاقنا وهى التى تمجد القـوة والوحشية والخداع والمكر ، بدلا من العدالة والحب • ولكن سبنسر شعر بأن القانون الأخلاقى الذى يفشـل أمام امتحان الانتخاب الطبيعى وتنازع البقاء مصيره الفشل • والأخـلاق كأى شىء آخر تكون خيرا أو شرا بمقدار ملاءمتها أو عدم ملاءمتهـا لغايات الحياة • وأعظم الأخلاق وأسماها هى التى تسـاعد على أعظم وأكمل حياة • أو على حد قانون التطور : فان السلوك يكون أخـلاقيا بمقدار ما يساعد الفرد أو الجماعة على الكمال والوحدة فى وسط تنافر الغايات • ولكن هذا التعريف للأخلاق تعريف غامض ، لأن الملائمة بين الفرد والمجتمع تختلف من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ،وكذلك فكرة الخير تختلف عند الشعوب أوسـع اختلاف • ويرى سبنسر أن الطبيعة قد زودتنـا بمقيـاس دقيق نميز به الطيب من الخبيث وهو مقياس اللذة والألم • فاللذة تشير الى منفعـة الشىء من النـاحية

البيولوجية والألم يشير الى خطورة الشيء من الناحية البيولوجية.ومع ذلك فاننا نجد اختلافا كبيرا لمفهوم الخير • فان الكثير من أخلاق الشعوب الغربية تعتبر لا أخلاقية لدى شعوب أخرى (١٨) •

نستنتج مما تقدم ان سبنسر يريد أن يبين لنا ان حياة الناس الى الآن لم تبلغ الكمال ولكنها سائرة اليه تبعا لسنة النشوء والارتقاء ويجب على الناس أن يساعدوا هذا السير بتعديل أنفسهم حسب ما حولهم من الظروف ، حتى يسرعوا فى البلوغ الى الكمال •

وسبق أن بينا أن الأعمال الأخلاقية نشأت ساذجة بسيطة وأخذت فى التدرج والرقى شيئا فشيئا • ولكن أصحاب هذا المذهب يرون أن كل عملية من عمليات النشوء والارتقاء تشمل ثلاثة أشياء : بدء من نقطة معينة ، وتدرج فى السير نحو غاية ، وغاية يقصد الوصول اليها • ففى نشوء الحيوان مثلا بدأت الحياة فى حيوانات دنيئة جدا ثم أرتقت شيئا فشيئا فى أجيال عده وآلاف من السنين وكان انتقالها تدريجيا ، وقد مر فى مراتب كثيرة من حشرات الى زواحف الى غير ذلك حتى وصل الى الانسان المتوحش فالمتمدين وهو سائر الى نوع من المدنية أرق وأعظم •

وقد شوهد ان رقى الانسان فى المحافظة على نوعه يسير جنبا لجنب مع المحافظة على شخصه ، فدرجات المحافظة متقاربة ، كلاهما ينشأ ساذجا بسيطا ثم يرقى •

---

(١٨) ول ديورانت قصة الفلسفة ـ أخلاق تطور الاخلاق ص ٤٨٨ وللمزيد من التفصيل انظر كتاب سبنسر • Data of Ethics

ويرى سبنسر ان الغاية التى يقف عندها الارتقاء غير محــدودة تماما ولكن كلما وافق الانسان سلوكه مع بيئته كان أقــرب الى المثــل الأعلى والغاية المنشودة • وعلى هذا يكون المقياس الخلقى عنده ، كلما كان العمل مؤديا الى توافق المرء مع ما حوله وجعله وجعل أبناء جنسه أغنى وأسعد كان خيرا • وكلما كان مؤديا الى جعله وجعل أبناء جنسه أفقر وأتعس كان شرا •

وباختصار شديد يعنى ان التوافق يحصل لذة للفرد ومجتمعــه واللا توافق ينتــج ألمــا •

ومهما يكن من أمر فان هذا المذهب يمس الدين من ناحيتين :

١ ــ عقيدة التأليه ، فالنشــوء والأرتقاء يعنى وجــود الكائنات وتطورها بفواعل طبيعية وبمعزل عن خالق وصانع واحــد عالم مريد قــــــــادر •

٢ ــ ما ورد فى الأديان السماوية عن بدء الخلق يخالف تمــاما ما ذهب اليه دعاة هذا المذهب ، ثم ما دليلهم على أن الانسان تسلسل فى حلقات تنحط شيئا فشيئا حتى تصل الى حشرة أو أحقر منها •

وعليه فان هذا المذهب فقد مصداقيته لأن نشــوء الكائنات من تلقاء نفسها أمر لا يقبله عقل خاص واننا لم نسمع ان قردا راقيا تحول الى انسان • ولهذا فقد الحماسة التى تلقى بها أيام جدته ونضارته • فأصحاب هذا المذهب تأتى الكلمة على ألسنتهم حيرى فــلا تعرف ان كانوا جهالا أم علماء ، موتى أم أحياء • ولكننى أعتقد انهم موتى بعد رحلتهم الذهنية المضنية التى استنزفت رحيق العقول : تمردوا فيهــا على الاله وامتدت أيديهم بمعــاول مؤلفاتهم لهــدم صروح الايمــان ورمــوزه الدينيــــة •

وفى نهاية الأمر أعلن سبنسر أنه أنهزم ودعا الى التساكن بين العلم والدين معلنا بذلك هزيمته ونهاية مذهبه ونهاية تحدى عملاق ٠

يقول الدكتور رشدى فكار أن هذا الموقف ، بلا شك المثنى لكل عالم أن يتخذه لأنه من العسير على النفس بعد طول عنساه أن تعترف بالعجز والفشل(١٩) ٠

مذهب الواجب « كانط »(٢٠)

ان نظرية (كانط » فى الأخلاق تقوم على أساس فكرة الواجب وفكرة الأمــر المطلق ٠ ويرى بعض الباحثين ان « كانــط » هو أعظم الأخلاقيين العقليين قاطبة ٠ اذ أنه أخضع العقل لنقد صارم الى أن تبين له أن العقل عقلان : عقل نظرى يحكم على الأشــياء تبعا لقضايا ومقدمات مأخوذة من الحس والادراكات والتجارب كما هو الشأن فى الأقيسة المنطقية ٠ وعقل عملى يحكم بالبداهة دون حاجة الى مقدمات وقضايا لأنه نور فطرى يدرك المجهولات لأول وهلة ٠ والسـؤال هنا أى العقلين يختار كانط ليضع أساس مذهبه الأخلاقى ٠

---

(١٩) حوار حول مشاكل العصر د٠ رشدى فكار ص ٦٠ ط مكتبة وهبـــة القاهرة ١٩٨٦م ٠

(٢٠) ولد هذا الفيلسوف فى مدينـة « كونسبرج » من أعمـــال بروسيا سنة ١٧٢٤م ومات فى نفس المدينة سنة ١٨٠٤م ٠ تابع دراسته فى جامعة المدينة نفسها ثم عين محاضرا فيها ثم أستاذا لعلم المنطق ومابعد الطبيعة ، كرس حياته للعلم وكانت مثالا من ضبط السلوك يعز عن الوصف اذ أن حياته تجرى بمواعيد محددة حتى ليمكن أن تضبط الســاعات على تنقلاته ٠

يقول « كانط » أنه يرفض العقل النظرى لأنه لا يصلح أساسا لشريعة الأخلاق ، اذ يعتمد فى حكمه على الحواس التى طالما ظهر خداعها لذلك فهو غير جدير • ونادى كانط بضرورة ارتفاع شريعة الأخلاق المقدسة عن مستوى العقل النظرى لأنه يجب ألا يشاد بناؤها الا على مبادىء مسلمة لا جدال فيها ولا حاجة بها الى البرهان •

أما العقل العملى فهو الجديرعند كانط بأن يوضع أساسا لشريعة الأخلاق لأنه معصوم من الخطأ وأحكامه مسلمة • وهذا العقل هو ما يسميه « كانط » بالضمير ، ويعتقد أنه قوة باطنية فطرية فى الانسان منذ خلق لا ينفرد بها شخص دون آخر • وهى النور الذى لا يخشى عليه خمود والهدى الذى لا يخشى عليه ضلال والمنجد الذى يرسل أشعته من أعماق النفس حين تعمى علينا الأنباء ونظم الطرق ، ولا تغنى القضايا والأقيسة ولا ينفع البرهان • وهو المرشد الأمين فى مراحل ما بعد الطبيعة « الميتافيزيقا » حيث يكل العقل النظرى ويتشكك ويتخاذل ولا يجد له هناك طريقا(٢١) •

مما تقدم يتضح لنا أن كانط يرفض اخضاع قانون الأخلاق للبحث النظرى والتجربة • ويرى أن هذا القانون موجود فى الانسان قبل التجربة وليست التجارب هى التى تعلمنا قانون الأخلاق • ولكن ما نشأ هذا القانون الأخلاقى أو الشعور الخير الذى يرشدنا ويحذرنا ويؤنبنا؟ يقول كانط ان منشأه هو « الضمير » بلاشك وهو العقل العملى الذى يخف لنجدتنا فى المواقف الحرجة ، ولهذا يعتبره أسمى ميزة للانسان وهو الأساس الأول لقانون الأخلاق الرفيع المنزلة • وهذه المنزلة تجعله دائما بعيدا عن أن يعتبر خيرية العمل أو شريته تابعة لما قد ينشأ عنه من منافع أو مضار أو لذات أو آلام كما هو الحال والشأن

---

(٢١) لمزيد من التفصيل راجع الأخلاق د• أبو بكر ذكرى ص ٩٥ •

في مذاهب اللذة والمنفعــة • لأن مبادئه تنطلق من شريعــة الأخلاق الواجبيــة

ويقول كانط ان الفعل الذى ينجز استجابة للواجب لا يســتمد قيمتــه الأخــلاقية من الغــاية التى ينبغــى بلوغهــا بل يســتمد من المبدأ الذى يقول عليــه ، انه لا يتوقف اذن على حقيقة موضــوع الفعل بل يتوقف فقط على مبدأ الارادة القــائل بأن العقل ينتج بغض النظر عن موضـوعات ملكــة الرغبــة

ومن خلال مقولته هذه نستطيع تحديد مبادئ هذا المذهب فيما يلى :

١ ــ عند مقياس السلوك علينا أن نعتبر الخير دائما فى مطابقة القانون الواجب والذى لا يبعث على عمله سوى صوت الواجب • وان نعتبر الشر دائما فى مخالفة داعى الواجب أو اشراك باعث آخر معه •

٢ ــ الارادة هنا حرة والا لما أمكن مطالبة المرء بأداء هذا الواجب والخضوع لقانونه • ويشير كانط هنا الى أن العقل النظرى لا يستطيع أن يبرهن على هذه الحرية ، ولكننا نشعر بها فى قرارة أنفسنا كمبدأ مســلم به غير قابل للبرهان ، فى حين أننا نحس به جليا عندما نوازن بين أمرين ثم نختار أحدهما • ولعل كانط أدرك تماما أن العقل النظرى لا ينهض بهذا البرهان لأنه خذل الرواقيين فى هذا الموضوع نفســه ولم يســتطيعوا به أن يوفقوا بين القول بالحرية ووجوب الخضــوع لأحكام القــدر •

وقد يتسأل البعض اذا كانت الارادة حرة فما الذى يخضعها لهذا الواجب ؟ •

يجيب كانط على هذا السؤال قائلا : ان العقل العملى « الضمير » الذى جعلناه أساس الأخلاق ليس عمله امداد الارادة بالمعرفة فقط : بل انه فوق ذلك يكلفها ويأمرها باتباع ســبيل الواجب وعلى الارادة

أن تطيع أمره فتأتى بما أراد . وليس خضوع الارادة لما يأمر به العقل مانعا من بقائها على صفة الحرية ، لأنها تطيع من تلقاء نفسها ويمكنها أن ترفض ــ متى شاءت ــ هذا الأمر الذى يصدره العقل . فهى اذن الخاضعة وهى التى اختارت بنفسها ذلك الخضوع لأنها خيرة فما أسمى حريتها وما أعلى قدرها بهذا الخضوع نفسه الذى يزيد من حريتها أكثر مما لو رفضت صوت العقل والواجب واستعبدتها الشهوات والحرية ليست الفوضى بل ارادة منظمة بالعقل .

٣ ــ قد يحسب مجرد الرغبة ارادة كاملة . ولكن هذا خطأ بين . لأنه لابد لكمال الارادة من استخدام كل ما يمكن من الوسائل لبلوغ غايتها السامية حتى تكون جديرة باسم الارادة الخيرة وهى وحدها تزهو ببهائها كحجر نفيس لأنها تستمد من ذاتها كل قيمتها .

٤ ــ بهذه الارادة الحرة التى تشرع باسم العقل قانون الأخلاق وتخضع له يكون من المقرر ان قانون الأخلاق هو من داخل نفوسنا ، منها يبدأ وفيها يتم وليس خاضعا لأية قوة خارجية . ولهذا كانت الشخصية الانسانية اسمى من كل كائن فى هذا الوجود واليها يجب أن يوجه الاحترام كله والاجلال كله وهى وحدها صاحبة القيمة المطلقة(٢٢) .

ورغم أن العقل العملى (الضمير) يخاطب الارادة ويأمرها أمرا جازما نجد فى المقابل وحى الشهوات والمنافع يوسوس لها بأوامر أخرى .

والفرق بين الأمرين ، ان الأمر الصادر عن وحى الشهوات والمنافع يسمى الأمر المقيد أو المشروط لأنه لا يأمر الارادة بالعمل الا بناء على

---

(٢٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

شروط يتقيد العمل بها مثال ذلك اذا كنت تريد النجاح فعليك بالمزاكرة هذا هو الأمر المقيد أو الأمر المشروط ومنه القوانين التى تحدد ثوابا وعقابا للأعمال • وللمرء أن يخالفها اذا كان مستعدا لتحمل التبعة • وليست طاعة الارادة لهذه الأوامر عملا فاضلا وليس لهذه الأوامر قيمة فى الأخلاق •

فالأمر المقيد أو المشروط اذن يقوم على أساس مبدأ من يبتغ الغاية يبتغ الوسيلة ، وهو مبدأ تحليلى اذ يمكن استنباط الوسيلة من الغاية بطريقة قبلية : فمن يبتغ المعرفة عليه بالتعلم ومن يبتغ الثروة عليه بالتجارة والاستثمار ومن يبتغ السلطة عليه بالخوض فى السياسة الخ •

ويراد بالمطلق هو قيام وجوده على الربط بين الارادة وبين القانون من غير توقفه على شرط ولا مقدمات ولا نتائج • الأمر المطلق يقرر أن الفعل يكون خيرا من الناحية الأخلاقية لأنه يجب أداؤه ولا يقرر أن الفعل ينبغى أداؤه لأنه خير من الناحية الأخلاقية ومفاد الواجب أن يكون مفروضا على الارادة الانسانية ، هو قانون العقل المحض لأنه قبلى كلى ومن خلال فكرة الواجب يأتى « كانط » ليمجد الأمر المطلق ويقول : هو المعتبر وحده فى الأخلاق ويجب أن يطاع لأنه يأمر دائما بالفضيلة وبما يجب لأنه ما يجب • لذلك جعله دستور سلوكه • ورفض أن يشترك مع الأمر المطلق غيره فمثلا اذا وقع عمل من الارادة خضوعا للأمر المطلق والأمر المقيد معا لا يعد عملا فاضلا لأن كل عمل يشارك الأمر المطلق فيه باعث آخر منفعى •

وطبيعى أن يكون هذا الرأى كانط لأنه ــ كما بينا ــ يعتقد تماما ان الفعل الأخلاقى هو الفعل القائم على الواجب وينبغى أن يميز بينه وبين الفعل المطابق للواجب اذ كثيرا من الأفعال يمكن أن تقع وفقا الواجب ولكنها تستهدف منفعة أو تخضع لميول مباشرة ليست فى ذاتها

صفة أخلاقية • ويقول هنا بقى علينا أن نعين قواعد لسلوكنا العملى نعرف بها فى كل عمل يقع منا اننا قد أدينـا عملنا تبعـا لمـا يأمر به الواجب ، لأن أداء الواجب للواجب معنى دقيق •

لذلك يشـير « كانط » الى أن الواجب هو ضرورة أداء الفعل احتراما للقـانون(٢٣) • ويرى (كانط) ان الواجب يتصف بثلاث جهـات :

١ ـ كونه صوريا محضا أى غير مادى(٢٤) •

٢ ـ نزاهته من الأغراض •

٣ ـ الواجب لا يمكن رده الى أى شىء آخر وذلك بالنظر الى أن دور الواجب لا يؤسسه شىء ، بل هو يؤسس كل فعل أخلاقى •

وبالجملة يقول كانط أننا نستطيع أن تكون أعمالنا كلها واجبية اذا لاحظنا ثلاثة شروط العمل الأخلاقى وهى :

١ ـ تعميم العمل حتى يكون عالميا • والقـاعدة فى ذلك (الا يعمل الانسـان الا عملا يمكنه أن يريد جعله قانونا عاما) كالصـدق والعفة والأمانة كل هـذه يمكن أن تراد قانونا عاما فعملهـا واجب • أما ما لا يمكن أن يراد جعلها قانونا عاما كالسرقة واغتصاب الأموال هذه الأعمال مرتكبها يرتكبها ولا يجب أن يقلده غيره فى ارتكابها • أى أن الرذائل المخالفة للواجب لا يمكن أن يراد جعلها قانونا عاما •

٤ ـ أن يكون العمل مما يقود الانسانية نحو الكمال المطلق والمثل الأعلى ، والقاعدة لذلك (ألا يفعل المرء الا ما يعده صادرا عن وحى

---

(٢٣) تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق ترجمة دلبوس ص ١٠٠ •
(٢٤) نقد العقل العملى ترجمة بكافية الفرنسية ص ٤٣ •

ضميره وحده وليس من تشريع سلطة خارجية) لأن الانسانية لا تتم ولا تكتمل الا اذا كان كل انسان يعمل ما يعمل مدفوعا بوحى ضميره لا خوفا من عقوبة أو طمعا فى مثوبة كما هو شأن النفوس التى لم تمح بذور الشر منها .

٣ ــ أن يكون العمل نتيجة ارادة حرة لا تخضع للغايات الوضعية والقاعدة لذلك (ان ينظر الانسان دائما الى الانسانية ، ممثلة فى شخصه أو فى أشخاص الآخرين ، على أنها غاية لا وسيلة . فمتى نظرنا الى الانسانية كغاية عليا جعلناها فى أسمى المراتب ، ولم نسخرها كوسيلة لطلب غاياتنا . كمن يهين نفسه أو يهلكها انتحارا لأنه طلب بها غاية الغايات ولم يحصل عليها(٢٥) .

تلك هى القواعد الثلاث التى بمراعاتها تكون جميع أعمالنا وفق قانون الواجب والفضيلة كل الفضيلة فى اتباعها ، هى منبع شريعة الواجب ومنتهاها وينبوع الخير الذى لا يغيض نبعه ولا يظمأ وارده.

ولكن هل يقف الخير دنيويا محضا حسب تعاليم كانط أى لا أمل له فى جزاء دنيوى أو أخروى . عيب هذا على المذهب الرواقى ولكن يبدو أن كانط يريد ادخال بعض التعديلات على العقيدة لم يأت بها أحد من قبله ، اذ وجد فى تعاليم الكنيسة أن الدين أساس الأخلاق وتقيم تعاليمها على ذلك ، لكن كانط جعل الأخلاق أساس الدين وأصر على ذلك

لقد أثار ما ذهب اليه من خفض الدين والنزول به الى مجرد ايمان أخلاقى جميع رجال الدين فى ألمانيا فقاموا بالاحتجاج حتى

---

(٢٥) الاخلاق أبو بكر ذكرى ص ١٠١ .

طلب منه ملك بروسيا التوقف عن كتابه مثل هذه الاهانات الى الدين(٢٦) .

وهكذا استطاع كانط أن يثبت تلك المعتقدات الخطيرة ويدعى أنها من مسلمات العقل العملى ولا حاجة بها الى براهين العقل النظرى التى هى فى نظر كانط أحكام قابلة للخطأ .

ولما شعر كانط أنه أتم قانون الأخلاق من غير حاجة الى العقل النظرى ومع الاستغناء التام عن سند له من الدين والعقائد أعجب كل الاعجاب بنفسه وعبقريته ، ولكنه حار أين يذهب ؟ أى أخلاق تلك التى لا تمس الدين والعقائد بل تستقل عنها تمام الاستقلال ؟ .

شعور بالواجب والخير فى محض أنفسنا وعقلنا العملى ، وارادة حرة تتلقى الأمر المطلق من العقل العملى فتخضع له من تلقاء نفسها دون سلطة خارجية وتنفذ هذا الأمر فى حدود الواجب ،استقلال تام بلا شك ، فهل يضحى كانط بهذا الاستقلال ويسلم بخضوعه للدين والعقيدة ؟ كلا انه يدعى أن العقائد الكبرى لا يمكن اثباتها الا من طريق هذا القانون الأخلاقى لأنه أساس فطرى من مسلمات العقل العملى لا يحتاج الى برهان .ويرى أنه أصلح علم (ما وراء الطبيعة)كله

---

(٢٦) أجاب كانط على هذه الرسالة بانه يجب أن يكون بكل عالم الحق فى الافصاح عن آرائه افصاحا مستقلا فى الامور الدينية والحرية فى نشر آرائه بين الناس ، ولكنه يعد بان يلوذ بالصمت ابان حكم الملك الحالى .

لقد لام بعض المؤرخين كانط لهذا الرضوخ لامر الملك ولكن يجب أن لا يغيب عنا أنه كان فى السبعين من عمره ضعيفا سقيما لا يقوى على النضال والكفاح فضلا عن اقتناعه انه قام بواجبه وبلغ العالم رسالته .

بعد أن كاد يعلن افلاسه ، لأنه تفضل على هذا العلم بأساس ثابت وهو قانونه الأخلاقى • ويقول الأستاذ سانتهلير(٢٧) أنه لم ينتبه الى أن قانونه هذا قد ينهدم فتنهدم كل عقيدة بناها عليه ، وما أجرأه اذ يجعل قانونه هذا كل شيء ويستخف بكل ما ورثت الانسانية من نور عقلى ومبادىء الشرائع الدينية السامية(٢٨) •

ولعل الذى دفع كانط فى هذا المزلق الخطر انما هو تفريقه الوهمى بين العقل العملى والعقل النظرى ، وجعله العقل النظرى غير صالح للبرهان على تلك العقائد الكبرى ، فلم يبق له من سبيل الى اثباتها الا العقل العملى يساعده الاستناد الى ــ نظرية الخير الأعلى ــ ولولا استنجاده بها لحار وضل كل ضلاله وخذله العقل العملى الذى وضع فيه كل ثقته • ويقول الأستاذ سانتهلير فى نقده : فلاح له فجأة ذلك الشعاع ــ أى نظرية الخير الأعلى ــ فأسرع اليه وان لم يكن ضوءا وهاجا ولا ثابتا • لكنه مع ذلك هو الوحيد لا غير • فلو لم يهتد به كانط لحكم على نفسه بالبقاء فى ظلمات لا صارف له عنها(٢٩) ، على أنه لم يكن هناك فائدة منذ البداية من الابتعاد الى هذا الحد عن الطريق العادية لأجل الرجوع اليها آخر الأمر من طريق أعوج بل كان خيرا له أن يعتقد كبقية الناس فى السلطة العادلة للعقل والضمير وان يتمسك

---

(٢٧) الاستاذ سانتهلير نازل كانط فى معركة من النقد حامية حتى ليكاد يحصى عليه أنفاسه وخوالج نفسه •

(٢٨) المصدر السابق ص ١٠٤ ــ ١٠٥ بتصرف •

(٢٩) يتضح لك هنا مدى تأثره بالامام الغزالى راجع مؤلفنا محاضرات فى الفلسفة الاسلامية فى المراحل الفكرية التى مر بها الغزالى (مرحله الشكل) ص ١٠٥ وما بعدها ــ لقد اهتدى حجة الاسلام الى ذلك الشعاع الباطنى والنور الفطرى الذى ينجد العقل عند الحيرة ولكنه لم يقطع الصلة بينه وبين العقل النظرى كما صنع كانط •

بالاعتقادات الكبرى التي يستشهد بها على طبيعة الروح ومستقبلها وعلى الموجود الذى لا نهاية له •

ويقول أيضا ، ان التنزل بالحرية وخلود الروح ووجود الله الى حد ألا تكون الا معقولات تبعية فروضا أو مسلمات — كما يريد كانط أن يسميها — ذلك ليس شيئا آخر سوى المخاطرة بحقائقها •

فأما يعتبر هذا أهم ما آخذه الأستاذ سانتوليو على مذهب كانط « شوبنهور » فيقول ان كانط كان فى حقيقة الأمر شاكا نبذ العقائد لنفسه ولكنه تردد فى أن يهدم عقائد الناس اشفاقا على الأخلاق العامة من الفساد ، انه زعزع اللاهوت القائم على العقل ثم ترك اللاهوت الشعبى دون أن يمسه ، لا بل دعمه باعتباره عقيدة مبنية على الشعور الأخلاقى فكأنما أدرك الخطأ الناجم من هدم اللاهوت العقلى فأسرع الى اللاهوت الأخلاقى كى يستمد منه بعض الدعائم الواهنة المؤقتة عسى أن يظل البناء قائما كى يتمكن من الهرب قبل أن تقع عليه الانقاض

ولا غرابة ان قارن « هينى » بين كانط النحيل البنيــة الضعيف وروبسبير المخيف فقال : ان روبسبير لم يقتل الا ملكا واحدا وبضعة آلاف قليلة من الفرنسيين — هى جريمة قد يتسامح فيها الرجل الألمانى أما كانط فقد قتل الله وقوض أعظم الأركان والدعائم الغالية التى يقوم عليها بناء اللاهوت • (ان الخلاف كبير بين حياة هذا الرجل الخارجية وبين أفكاره الهدامة التى هزت العالم وأرجفته رعبا • ولو قدر سكان كونسبرج أهمية هذه الأفكار البالغة ، لارتاعوا من وجود هذا الرجل بينهم أكثر من خوفهم من جلاد ينفذ حكم الاعدام بالناس فقط • ولكن الناس لم يروا فيه الا استاذا للفلسفة وعندما كان يخرج ويمر بهم فى ساعة خروجه المحددة التى لا يحيد عنها كانوا يحيونه بهز رؤوسهم

تحية الصداقة ويضبطون ساعاتهم)(٣٠) ٠

وقبل أن نختتم عرضنا لهذا المذهب أرى أن نشـير الى مذهب كانط فى مقدمة سانتهلير وقصة الفلسفة الحديثة وأصـول الفلسـفة والتى أشار فيها الى أن خلقية كانط على ما بها من دعوة حارة للواجب وما فيها من اكبار شأن الانسانية ٠ لم تلق من البيئة التى ولدت فيها القدر الذى تستحقه ولم تكن لتتلقى كوحى السماء ٠ جـاء بعـدها فلسفات وفلاسفة ، ومضوا وما حققت تعاليمهم وطرأ من خير الانسانية فلا تزال أوروبا مهد فلسفتهم ومنشؤها سـادرة فى غيها ماضـية فى مطامعها تعتقد أن السيف أصدق أنباء من الكتب وان الحق هو القوة ٠ كما شرح ذلك السوفسطائيون منذ أربعة وعشرين قرنا(٣١) ٠

وبعد فاذا كان كانط قد استطاع النيل من اللاهوت المسيحى كما يرى ناقدوه المسيحيون فان آراءه لن تجد عندنا من يتأثر بها هذا الأثر الذى روع الكهنوت المسيحين لأن تعاليم الاسلام أسمى من أن يضرها فلسـفة كانط أو سـواها ٠

وقبـل أن أطوى صـفحاتى ، ومع اعترافى بأن البحث العلمى لا يعرف الكلمة الأخيرة ، الا أننى أحب أن أقول : ان الذى يتـأسى له المرء أشد الأسى ، أن بعض الرجال والشباب والسيدات والآنسات والطلبة والطالبات ، يحاولون تقليد الغرب فى مختلف جوانب الحياة

---

(٣٠) لمزيد من التفصيل راجع ول ديورانت قصـة الفلسـفة ص ٣٤٨/٣٤٧ ط مكتبة المعارف بيروت ط الخامسة ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع ١٩٨٥م ٠ والاخلاق د٠ أبو بكر ذكرى ص ١٠٩/١٠٦ ٠

(٣١) ينظر مذهب كانط فى مقدمة « سانتهلير » وقصة الفلسـفة الحديثة وأصول الفلسفة ٠ والاخلاق د٠ أبو بكر ذكرى ص ١١٢ ٠

العامة • ومما يدعو الى الرثاء أن تخلع الفتاة ثوب الحياء ورداء العفة تحت ستار الحضارة والمدنية ولله در القائل :

أهى الفضيلة أم هوى وضياع أم بالفضيلة ناءت الأوضاع
يا قوم سحقا للحضارة مرتعا للفحش بين الأبرياء يشاع
والعرض أضحى سلعة مبذولة يشرى بأسواق الهوى ويباع

عموما هى محاولة من الغرب يريد أن يقحمنا فى مشاكله وظروفه ويفرض علينا قيمه وسلوكه باسم التطور للتأثير على الكيان العربى والاسلامى ، وعلى انحلال مجتمعاته مع التركيز على الشباب من الرجال والفتيات حتى يخرجوا عن التقاليد والأعراف فتضعف عزائمهم ويلتفتوا الى الاباحية والشهوات •

وبالجملة أنهم لم يتركوا محمدة من محامد الاسلام فيما يتعلق بسلوك وقيم وأخلاق مجتمعة الا هاجموها باعتبارها اهانة وازلالا ونقيصه • هى فى الواقع استراتيجية استشراقية غربية معروفة للنيل من الأسرة فى الأمة الاسلامية • لأن الغرب فقد حنين ذلك ويعلم جيدا أن المرأة المسلمة هى ربة بيت وراعية أسرة وحاضنة أجيال وصانعة رجال • أما المرأة فى الغرب فقدت كل ذلك بدعوى المساواة ، فوقعت فى مصيدة صنعتها بنفسها لنفسها واحكم قبضتها رجال وشباب هم تجار المباذل والشهوات ، فعاشوا وعاشت معهم على الدوام بمفهوم أنها عارضة فتنة وبائعة شهوه ومثيرة غريزة •

هذه هى المرأة الأوروبية ومعاناتها ، وقد ترعزعت الآن تماما مما أدى الى ضعف شعورها الدينى والى ضياع القيم والتقاليد وعم فى الغرب الفساد وضاع مفهوم الأسرة • ولهذا نحن فى حاجة دائمة الى جهد متفاعل مع نية طاهرة لمقاومة الميول الخبيثة التى يحاول أن يصدرها لنا الغرب متخذا من الأقمار الصناعية وأجهزة الارسال

التلفزيونية وخلافه منطلقا لبث سمومه ، وهى فى النهاية ميول معادية تريد أن تقهرنا باسم التطور والحضارة والمدنية ومهمتنا العاجلة الملحة الآن أن نسكت فورتها .

لقد تكلم الغرب قرونا عنـــا ، وقد آن لنا أن نتكلم الآن بدورنا لنكشف مجتمعه بعـــد أن فقد كل مقوم أخلاقى . ولنبين لجيلنـــا من الشباب أن مجتمع الغرب الآن فى مخمصـــة أخلاقية لا يقرها العقل والمنطق ، ولا يسلم بها الفكر والواقع ؛ انهم اتخذوا من أهوائهم سبلا أضلتهم وأضلت البسطاء معهم .

وفقنا الله الى اتباع أوامره وجنبنا الوقوع فى محارمه وهو وحده ولى التوفيق .

د. صلاح الدين خليل عثمان

المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن باجه : رسالة تدبير المتوحد . ترجمة الاستاذ مانك بالفرنسية عن العبرية من كتاب اليهودية والعبرية .

٣ ـ ابن خلدون : المقدمة مكتبة الهلال بيروت .

٤ ـ ابن طفيل : حي بني يقظان . تحقيق د. جميل صليبا و د. كامل عياد دمشق .

٥ ـ ابن مسكوية : تهذيب الاخلاق ط الحسينية بمصر ١٣٢٩هـ .

٦ ـ ابن منظور : لسان العرب ـ القاموس ـ دار المعارف .

٧ ـ أبو بكر ذكرى (دكتور) مباحث ونظريات فى علم الاخلاق ط دار الفكر العربى القاهرة .

٨ ـ أحمد أمين : كتاب الاخلاق ط الثالثة دار الكتب عام ١٩١٩ مصر .

٩ ـ أحمد عبد العزيز الالفى (دكتور) شرح قانون العقوبات ط جامعة الزقازيق ١٩٧٨م .

١٠ ـ اخوان الصفا : الرسائل الجزء الثانى .

١١ ـ أرسطو طاليس : كتاب الاخلاق ترجمة اسحق بن حنين حققه د. عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات ـ الكويت ١٩٧٩ .

١٢ ـ أفلاطون : السياسة .

١٣ ـ الراغب الاصفهانى : المفردات فى غريب القرآن .

١٤ ـ الشهرزورى : كتاب نزهة الارواح .

١٥ ـ الغزالى (الامام أبو حامد) : احياء العلوم جـ ٣ مؤسسة الحلبى وشركاه القاهرة .

١٦ ـ الميزان ـ القاهرة .

١٧ ـ معارج القدس ـ ط الاولى ١٣٤٦ هـ القاهرة .

١٨ ـ الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة بيروت تحقيق د. البيير نصرى ١٩٥٩م .

١٩ ـ الكندى : رسائل الكندى ـ التنبيه على الفضائل وتسهيل سبل الفضائل .

٢٠ ـ أمير عبد العزيز (دكتور) دراسات فى الثقافة الاسلامية ط القاهرة

٢١ ـ توفيق الطويل (دكتور) : فلسفة الاخلاق وتطورها ط الثالثة دار النهضة العربية ١٩٧٦م .

٢٢ ـ جار الله الزمخشرى : أساس البلاغة ط دار الشعب القاهرة .

٢٣ ـ جعفر شيخ ادريس (دكتور) : فى منهج العمل الاسلامى ـ المسلم المعاصر العدد ١٣/١٩٧٨م .

٢٤ ـ حسين فوزى (دكتور) : الاسلام السياسى ـ ط القاهرة .

٢٥ ـ دى لاسى أوليرى : الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ترجمة اسماعيل البيطار بيروت ١٩٧٢م .

٢٦ ـ ديوجانس : رسالة الى ما نفيه ترجمة زيفوت حياة وآراء الفلاسفة المشهورين فرنسا .

٢٧ ـ رشدى فكار (دكتور) : حوار حول مشاكل العصر ط مكتبة وهبة ١٩٨٦م .

٢٨ ـ زكى محمد اسماعيل : الفلسفة والمنطق مراجعة د. عبد القادر محمود النيل للطباعة ٧٢ .

٢٩ ـ سانتهلير : كتاب أرسطو (العلاقة بين السياسة والاخلاق) ترجمة لطفى السيد .

٣٠ ـ سعيد حوى : الاسلام (أربعة أجزاء معا) مراجعة وهبة سليمان ط وهبة مصر ١٩٧٧ .

٣١ ـ صاعد الأندلسي : طبقات الأمم .

٣٢ ـ صلاح الدين خليل عثمان (دكتور) : محاضرات فى الفلسفة الاسلامية ط لأمانة شبرا مصر ١٩٩٥م .

٣٣ ـ عبد الحليم محمود (دكتور) : الاسلام والعقل ط ٣ دار المعارف بمصر القاهرة .

٣٤ ـ عبد الرحمن بدوى (دكتور) : الأخلاق النظرية ـ ط وكالة المطبوعات الكويت .

٣٥ ـ عبد الرحمن حسن حنبكه : الاخلاق الاسلامية وأسسها ج ١ .

٣٦ ـ عبد الرحمن الرشيد عبد العزيز (دكتور) الاسلام واللغة والتاريخ مكتبة التراث الاسلامى بمصر .

٣٧ ـ كانط (امانويل) نقد العقل العملى : ترجمة بكافية الفرنسية .

٣٨ ـ تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ترجمة دلبوس .

٣٩ ـ كمال اليازجى : الموجز فى مسائل الفلسفة الاسلامية ط ١ عام ١٩٧٥م .

٤٠ ـ ماجد فخرى : أرسطو المعلم الأول .

٤١ ـ محمد أحمد جاد المولى : الخلق الكامل ج ٢ ط حجازى الطبعة الأولى ١٩٣٢م .

٤٢ ـ محمد البهى (دكتور) : الغزالى وفلسفته الأخلاقية والصوفية ط مكتبة وهبة القاهرة .

٤٣ ـ محمد باقر الصدر : فلسفتنا .

٤٤ ـ محمد طاهر : علم الأخلاق النظرية والتطبيق ط . الهلال بيروت ١٩٨٧م .

٤٥ ـ محمد عبد الرحمن بيصار (دكتور) العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع ط مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٠م .

٤٦ ـ محمد عبد الله دراز (دكتور) : دستور الأخلاق فى القرآن ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٢م .

٤٧ ـ محمد فاضل الجمالى (دكتور) : نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الاسلامى الدار التونسية ١٩٧٢م .

٤٨ ـ محمد يوسف موسى (دكتور) : فلسفة الأخلاق فى الاسلام ط ٢ القاهرة ١٩٦٣م .

٤٩ ـ مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام ط مكتبة الخانجى مصر ١٩٧٢م .

٥٠ ـ فؤاد البهى السيد (دكتور) : الأسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة دار الفكر العربى ١٩٧٥م .

٥١ ـ ول ديورانت : قصة الفلسفة ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع ط دار المعارف بيروت .

٥٢ ـ وليم زيفدسون : النفعيون ترجمة محمد ابراهيم زكى .

٥٤ — Makenzies . Manual of Ethics

٥٥ — Sidquick History of Ethics .

٥٦ — Spencer . Data of Ethics

٥٧ — W . T siace . citireal History of Greek Philosophy .

فهرست الموضوعات

فهـــرس الموضـــوعات

الصفحة

كتب أخرى للمؤلف

١ ــ أفول النظرية الماركسية فى ضوء الفكر الاسلامى ·
(عرض فلسفى تحليل مقارن) ·
٢ ــ الوجودية فلسفة اليأس العقلى ·
٣ ــ محاضرات فى الفلسفة الاسلامية ·
٤ ــ الاستشراق ومنهجه فى دراسة الاسلام ·
٥ ــ تبسيط المنطق ·